الشعر بين المعيارين الأخلاقي والفني

في النقد العربي القديم

بقلم:
الياس قطريب

تعددت مواقف الدارسين، وتباينت أراؤهم في موضوع (الإسلام والشعر)، فقد رأى فريق منهم أنّ ظهور الإسلام، والتفاف العرب حول الدين الجديد، وانشغالهم بالقرآن الكريم، الذي أدهشهم بروعة بيانه، وجمال بلاغته، أدّى الى انصراف الشعراء عن نظم الشعر، فأصابه الضعف، وتدنت مكانته، وفقد منزلته التي كانت له قبل الإسلام. في حين رأى فريق آخر أنّ ظهور الإسلام لم يضعف الشعر ولم يقلّل من اهميته، بل على العكس، إذ كان الإسلام رافداً كبيراً أمدّ الشعراء بفيض غزير من المعاني والافكار واساليب القول، فاغتنى شكلا ومضمونا، وطرأ عليه شيء من التطور والتجديد.

ولسنا في صدد عرض هذه الآراء ومناقشتها؛ فقد قام بهذا العمل عدد لا بأس به من الدارسين[1]. وما يهمنا هنا هو الإشارة الى الأثر الكبير الذي أحدثه الإسلام في الشعر والشعراء، وهو أثر لم يقف عند ذلك فحسب، بل تعدّاه الى نقد هذا الشعر وتقويمه.

وبالعودة إلى الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي تحدثت عن الشعر والشعراء، يمكن القول إن الإسلام لم يهاجم الشعر كفنّ قولي، أو كوسيلة فنية للتعبير عن الأفكار والمشاعر والأحاسيس، بل نظر اليه من الناحية الوظيفية والنفعية، فما كان من هذا الشعر يتفق مع مبادىء الإسلام وتعاليمه حثّ عليه، ودعا إليه. وما كان منه يتنافى مع تلك المبادىء والتعاليم، فدعا إلى نبذه ونهى عن روايته.

وعلى هذا الأساس ، فان الموقف الايجابي للإسلام من الشعر يتحدد فيما

يقدّمه هذا الشعر من قيم روحية وخلقية تسمو بالإنسان، وتعزز إيمانه، وتدفعه في طريق الحقّ والخير. وهذا الموقف الإيجابي نجده عند أبي بكر حين حكم علي زهير بن أبي سلمى بأنه أشعر الشعراء لقوله[٢]:

والستر دون الفاحشات وما يلقاك دون الخير من ستر

* * *

أما موقف الإسلام السلبي من الشعر، فيتمثل في ذلك النوع الذي يعمل على إفساد النفوس، وإثارة الشهوات، والولوج بالإنسان إلى عالم الغواية والضلال. وهذا ما دفع بهشام بن عروة إلى القول: «لا ترواّ فتياتكم شعر عمربن أبي ربيعة لا يتورطن في الزنا تورطاً»[٣].

هذه النظرة الإسلامية إلى الشعر تجلّى أثرها عند عدد من النقاد، راحوا يقوّمون الشعر، ويحكمون عليه - سلباً او ايجابا - لا بالنظر الى فنيته وجماله، وانما بالنظر الى أخلاقيته وفائدته، فكان المبدأ الديني والاخلاقي هو المقياس الذي يحددون به قيمة الشعر ومكانة الشاعر، وهو ما لاحظه الدكتور عز الدين اسماعيل حين قال «في هذه الفترة القصيرة من الإسلام وُضعت للشعر مقوّمات دينية، وكان يلقى القبول والرفض على أساس ما يتوافر فيه من هذه المقوّمات: الأخلاق القويمة، الفضائل، المواعظ، العفة، الهمة، المروءة»[٤].

* المعيار الأخلاقي في نقد الشعر

خصّ ابن طباطبا (٣٢٢هـ) كتابه (عيار الشعر) للحديث عن فنّ الشعر من زوايا وجوانب متعددة، وكان مما تناوله في هذا الكتاب الحديث عن مهمة الشعر من حيث فاعليته الاجتماعية وغايته التعليمية. فللشعر وظائف وغايات على أساسها يمكن الحكم عليه. وهو يرى أن غاية الشاعر يجب أن ترتبط بالخير، وكل شعر لا يتوخّى ذلك يفقد جودته، والشعر الذي يخرج على التصورات الدينية والأخلاقية كالغزل والهجاء وما يشاكلهما يعدّ من قبيل اللغو الذي لا طائل منه، ولا جدوى من روايته[٥].

فالمحتوى الأخلاقي هو المطلوب، وجودة الشعر وجماله تُقرن دائما بأخلاقيته، ومن هنا نفهم سبب إعجاب ابن طباطبا ببعض الأشعار التي اشتملت على معنى حكمي أو أخلاقي كقول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا - لا أبالك - يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته، ومن تخطىء يعمر فيهرم

* * *

أو قول أبي ذؤيب:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع
والنفس راغبة إذا رغبتها وأذا تردّ الى قليل تقنع

* * *

ويعلق عليها بقوله: «فهذه الأشعار وما شاكلها من أشعار القدماء والمحدثين أصحاب البدائع والمعاني اللطيفة الدقيقة تجب روايتها والتكثر لحفظها». وإعجابه بهذه الأبيات يرجع إلى توافق الصياغة مع المعنى الأخلاقي والحكمة الموجزة التي يمكن أن تساهم في تكوين البناء الأخلاقي للفرد[٦].

وتأكيد ابن طباطبا على الجانب

الأخلاقي في الشعر، جعله يلح على توافر عنصر الصدق، الذي عدّه من أهم عناصر الشعر وأكبر مزاياه، وقاده ذلك إلى إظهار إعجابه بأبيات ركيكة الأسلوب لاشتمالها على معنى أخلاقي، أو لما فيها من صدق.

وهو بهذا يُعلي من شأن الجانب الأخلاقي على حساب الجانب الفني، ويغلب المضمون على الصياغة الشعرية، ويغدو شكل التعبير لا قيمة له بذاته، بل لارتباطه بمضمون ديني وأخلاقي.

ونلمح في نقد ابن وكيع (٣٩٣هـ) لأبيات المتنبي أثر الدين في هذا النقد، فهو يصرف همه إلى المعاني التي تمسّ الناحية الدينية، متخذاً منها أداة للطعن على الشاعر. ففي قوله المتنبي:

يا أيها الملكَ المصفَّى جوهرا
من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لا هوتيه
فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

* * *

يقول معلّقا عليه «هذا مدح متجاور، وفيه قلة ورع وترك للتحفظ لأنه جعله ذات الباري وذكر أنه قد حل فيه نور إلهي»[٧].

كما يقف عند قوله:

أيّ محل أرتقي
أيّ عظيم أتقي
وكل ما قد خلق
الله وما لم يخلق
محتقر في همتي
كشعرة في مفرقي

* * *

فيقول: «هذه أبيات فيها قلة ورع؟ احتقر ما خلق الله ـ عزّ وجل ـ وقد خلق الأنبياء والملائكة والصالحين.. وهذا مما لا أحبّ إثباته في ديوانه لخروجه عن وجه الكبر الى وجه الكفر»[٨].

ويتطرق ابن مسكويه (٤٢١هـ) إلى تبيان العلاقة بين الشعر والأخلاق، وذلك في معرض حديثه عن النقائص التي ابتلي بها الانسان، وحاجاته الضرورية الى ازالتها.

فيتحدث عن أثر الشعر في تربية النشىء، ويخصّ ذلك النوع من الشعر الذي يجلب الضرر في تربية الناشئين أمثال شعر امرىء القيس والنابغة وأشباههما لما اشتمل على فحش وأكاذيب، يقول:

«ومن لم يتفق له ذلك في مبدأ نشوئه ثم ابتلى بأن يربيه والده على رواية الشعر الفاحش واستحسان ما يوجد فيه من ذكر القبائح ونيل اللذات كما يوجد في شعر امرىء القيس والنابغة وأشباههما، ثم صار بعد ذلك إلى رؤساء يقربونه على روايتها وقول مثلها ويجزلون له العطية.. فليعد جميع ذلك شقاء لا نعيما وخسرانا لا ربحا»[٩].

ولكن ابن مسكويه لا ينفي الشعر كله، وإنما يستبقي منه ذلك النوع الذي يساعد على تأديب الأحداث، ويساهم في تنشئتهم تنشئة صحيحة قوامها الدين والأخلاق يقول:

«ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعوده بالأدب حتى تتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع ما قدمنا ذكره، ويحذّر النظر في الأشعار السخيفة ومافيها من ذكر العشق وأهله وما يوهمه أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع فان هذا الباب مفسدة للأحداث

جدا»[10].

إنّ حرص ابن مسكويه على أنّ يربّي النشىء تربية فاضلة تعو د بالصحة والنفع عليهم وعلى مجتمعهم، جعله يُسقط تلك الأشعار التي تتضمن معاني الفحش والعشق.. لانها تشكل ـ في رأيه ـ خطراً يهدد الكيان النفسي والصحي والخلقي للأحداث. وينطوي هذا الرأي على نقد ضمني يتمثل في رفض هذه الأشعار دون النظر إلى قيمتها الفنية، ويستند إلى مبدأ أخلاقي يقوم على توخّي النفع والمصلحة العامة. ويرى الدكتور إحسان عباس أنّ ابن مسكوية بأفكاره هذه كان واقعا تحت تأثير أفلاطون، إلى جانب تأثره بأرسطو[11].

ولعل ابن حزم (٤٥٦هـ) كان أكثر النقاد الذين اهتموا بهذا الموضوع، وينّم حديثه عن موقف محافظ ومتشدد، فهو يحبذ الشعر الذي يتضمن الحكم والمواعظ وذكر الخير، ويدعو المرء إلى صالح القول والعمل، وبالمقابل ينهي عن رواية أشعار الغزل والهجاء والتصعلك لأنها تحثّ على الصبابة، وتدعو إلى الفتنة، وتصرف النفس الى الخلاعة واللذات، يقول في ذلك:

«إن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشعر فلا يكن الا عن الأشعار التي فيها الحكم والخير كشعر حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة ونحو ذلك، فإنها نعم العون على تنبيه النفس. وينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب:

أحداها: الأغزال والرقيق فإنها تحثّ على الصبابة وتدعو إلى الفتنة.. وتصرف النفس الى الخلاعة.. والفساد في الدين..».

والضرب الثاني: الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة وعروة بن الورد.. فإنّ هذه أشعار تثير النفوس وتهيج الطبيعة، وتسهّل على المرء موارد التلف في غير حق..

والضرب الثالث: أشعار التغرب، وصفات المغاوز.. فانها تسهل التحول والتغرب..

والضرب الرابع: الهجاء، فإنّ هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه»[12].

إنّ اقرار ابن حزم وقبوله للشعر الذي يحثّ على الفضيلة ويدعو الى الخير من جهة، وإنكاره ورفضه للشعر الذي يخالف القواعد الدينية والخلقية من جهة ثانية، ينبع من مبدأ تربوي قائم على تحكيم المبدأ الأخلاقي في تقويم الشعر.

ولا شك أنّ ابن حزم كان يرمي الى هدف نبيل، إذ كان همه منصبا على تربية الشبان تربية صالحة قوامها الفضائل والأخلاق الحميدة. وفي سبيل هذا الهدف راح يبحث عن الوسائل التي تكفل تحقيق ذلك، فرأى في الشعر وسيلة من هذه الوسائل، فكان تقديره له وحكمه عليه مبنيا على أساس أخلاقي، كما رأى أنّ صلاحية الشعر تتوقف على الدور الذي يقوم به في هذا المجال.

ولكن ابن حزم يغفل أو يتناسى أنّ الشعر فن، وأنّ الفن لا يمكن أن تُقاس جودته أو رداءته بمقاييس خلقية، ولو كان الأمر كذلك لوجب أن تحذف من تراثنا الادبي اكثر من نصف اشعارنا، ولوجب علينا أيضاً ان نعيد النظر في كتبنا المدرسية ومناهجنا التعليمية، ونقتصر على ايراد الشعر الذي يتضمن الحكم والمواعظ وما شابه ذلك. ولكن الأمر على خلاف ذلك. إذ إنّ فنية الأدب شيء مختلف

كل الاختلاف عن تعاليم الدين وقوانين الأخلاقي.

ونلمح تحكم المقياس الخلقي عند ابن شرف (٤٦٠هـ)، وذلك في نقده لشعر امرىء القى إذ يعتمد في هذا النقد على النظرية الأخلاقية التي بموجبها يتميز الشعر الجيد من الشعر الرديء. ففي قول المريد القيس:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة
فقالت لك الويلات إنك مرجلي

* * *

يقول معلقا: «فما كان أغناه عن الإقرار بهذا، وما أشد غفلته عما أدركه من الوصمة به، وذلك أنّ فيه أعداداً كثيرة من النقص والبخس، منها دخوله متطفلا على من كره دخوله عليه ومنها قول عنيزة (لك الويلات)، وهي قولة لا تقال الا لخسيس، ولا يقابل بها رئيس»[١٣].

كما يقول معلقا على بيت امرىء القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعا
فألهيتها عن ذي تمائم محول

* * *

فلم يكن لها عاشقا، بل كان فاسقا، ثم أهجن هجنه عليه، وأسخن سخنة لعينيه إقراره بإتيان الحبلى والمرضع..»[١٤].

وقد دافع عن نقده هذا في ردّه على من يظن أنه ينقد عيوبا تتعلق بأخلاقية امرىء القيس ولا تتعلق بشعره. فكان جوابه أنه امرأ القيس أراد أن يفخر بما صنع وقد «نطق شعره بقدر ما أراد، وترجم عنه قريضه بأقبح الأوصاف. فأيّ خلل من خلال الشعر أشد من الانعكاس والتناقض. وكل ما يخزي من الشعر فهو من أشد العيوب»[١٥].

ومن النقاد الأندلسيين الذين نهجوا هذا السبيل في تحكيم الدين والاخلاق في تذوق الشعر والحكم عليه ابن بسام (٥٤٢هـ) وهو يشبه ابن حزم في أنه ناقد محافظ متشدد، ويتجلى موقفه الأخلاقي من الشعر في نفوره ورفضه لشعر الهجاء، كما كان ينفر من التفلسف في الشعر ومن إيراد المعاني الالحادية فيه، وكان العامل الأخلاقي والديني قويا في توجيه النقد عنده[١٦].

ولعل رأيه في الشعر عامة، يوضح لنا نزعته الاخلاقية والدينية، ومدى تحكمها في مواقفه النقدية، يقول: «ومع أن الشعر لم أرضه مركبا، ولا اتخذته مكسبا، ولا ألفته مثوى ولا منقلبا، إنما زرته لماما، ولمحته تهمما لا اهتماما، رغبة بعزّ نفسي عن زلة... وما لي وله، وإنما أكثره خدعة محتال، وخلعة محتال، جده تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل، وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنشور والمنظوم»[١٧].

وآخر النقاد الذين نتوقف عندهم، ممن نحا هذا المنحى هو حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) ويتجلى المبدأ الأخلاقي عنده في تحديده لمهمة الشعر، يقول: «الأقاويل الشعرية.. القصد منها استجلاب المنافع واستدفاع المضار، ببسطها النفوس الى ما يراد من ذلك وقبضها عما يراد، بما يخيل لها فيه من خير أو شر»[١٨].

وذلك قول «لا يجعل الشعر من قبيل المتعة العارضة او التسلية الهينة أو الوصف المتعمق، أو مجرد الدعاية التي تهدف الى الإقناع على حساب الحقيقة، بل هو قول يشدّ الشعر الى مهمة اخلاقية لها أثارها في حياة الفرد والجماعة»[١٩].

ويتحدث حازم عن فاعلية التحسين والتقبيح في الشعر التي تحدث أثرها من خلال مخطط أخلاقي، ويربط هذه الفاعلية بالدين والعقل والمروءة، وهي زوايا تمثل معيارا أخلاقيا له ثباته في تحديد البعد الأخلاقي للشعر[٢٠]. وعلى هذا الأساس فإنّ الشعر يهدف الى تحقيق النفع ولا قيمة لشعر لا يحقق نفعا.

ورغم تأكيد حازم على أهمية المحتوى الأخلاقي وأثاره الإيجابية، إلا أنه كان أكثر تفهما ووعيا لطبيعة الشعر من النقاد السابقين، إذ لم يغفل أهمية الشعر أو الصياغة الشعرية، فإلى جانب القيمة الأخلاقية للشعر يجب أنْ ينطوي على قيمة جمالية تثير في المتلقي المتعة ولذة التعرف والكشف، ومن خلالها يحقق الشعر استجابة الناس له، والتأثير على سلوكهم.

وعلى هذا فإن الشعر لا يوصل القيم الأخلاقية بطريقة مباشرة، «إنه يوصلها من خلال وسيط نوعي يقدمها تقديما فنياً مؤثرا».

وهناك نقاد آخرون سلكوا هذا السبيل في نقدهم للشعر، نكتفي بذكر أسمائهم كابن قتيبة (٢٧٦هـ)، والباقلاني (٤٠٣هـ)، وابن القاسم الكلاعي (٥٤٣هـ).

★ المعيار الفني في نقد الشعر

واذا كان هؤلاء النقاد قد جعلوا من المبدأ الديني والأخلاقي معيارا نقديا في الحكم على الشعر من حيث الجودة والرداءة، ومن حيث القبول والرفض، فان نقادا اخرين كان لهم موقف مختلف في هذا الشأن. فقد رأوا أن الشعر لا يمكن أن يعيش في كنف الدين والأخلاق، وأنّ الأهداف الدينية والأخلاقية لا تأتلف وطبيعته «.. ولذلك نلاحظ أن الشعر كما كان يلقى القبول والإعجاب حينما ينحو نحوا أخلاقيا بصفة عامة، ويلقى الرفض، ويعرض قائله للقتل، اذا هو عارض تلك النزعة، فإنه يعود سريعا ليلقى القبول والإعجاب، كما كان من قبل، إذا هو كان مخالفاً لتعاليم الدين والاخلاق الفاضلة، ويلقى الرفض، ويعرض صاحبه للسخرية المرة عندما يلتزم أيّ موقف أخلاقي بجانب الدين..»[٢٢].

ففي رسالة أرسلها ابن الأنباري الى ابن المعتز (٢١٦هـ) يذمّ فيها أبا نواس، وينعته بأقبح الصفات، ويشنّ حملة عنيفة على شعره، وينكر ما فيه من مجون وفحش، ويدعو الناس الى نبذ هذا الشعر وترك روايته، نجد ابن المعتز يجيبه برسالة يفرق فيها بين مثالية الأخلاق وروحانية الدين من جهة، وبين فنية الشعر وواقعية الأدب من جهة ثانية، ومما قاله: «ولم يؤسس الشعر بانيه على ان يكون المبرّز في ميدانه من اقتصر على الصدق، ولم يغفُ بصبوة، ولم يرخّص في هفوة ولم ينطق بكذبة، ولم يغرق في ذم، ولم يتجاوز في مدح، ولم يزوّر الباطل ويكسبه معارض الحق، ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية بن أبي الصلت الثقفي وعدي بن زيد العبادي، اذ كانا أكثر تذكيرا وتحذيرا ومواعظ في أشعارهما من امرىء القيس والنابغة»[٢٣].

وقد تبع الصولي (٣٣٥هـ) ابن المعتز في عزل الدين والأخلاق عن الشعر، وموقفه النقدي هذا يتجلى في دفاعه عن أبي تمام، حين اتهمه بعض معاصريه بمعتقد، الديني، وأنه كان يخلّ بفروضه، قال: «وقد ادّعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت أن كفرا ينقص

من شعر ولا أنّ إيمانا يزيد فيه.».

«وكذلك ماضرّ الأربعة، الذين أجمع العلماء على انهم أشعر الناس: امرأ القيس والنابغة الذبياني وزهيرا والأعشى، كفرهم في شعرهم، وإنما ضرهم في أنفسهم. ولا رأينا جريرا والفرزدق يتقدمان الأخطل عند من يقدمهما عليه بإيمانهما وكفره، وإنما تقدمهما بالشعر»[٢٤].

يبدو واضحاً أن الصولي يفصل فصلا تاما بين الدين والشعر، ويرى أنّ إيمان الشاعر أو كفره أمر يتعلق بشخصية هذا الشاعر، ولا يجوز أن نحكم على شعره من هذه الزاوية، بل يجب النظر إلى هذا الشعر في ذاته، ويكون حكمنا عليه، ونقدنا له، مبنيا على أساس فني ليس غير.

ونجد شبيها لهذا الموقف عند قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ)، فهو يرى أن الأخلاق يجب ألا تحدّ من حرية الشاعر في تناول المعاني والتعبير عنها، إذ كلها مباحة للشاعر، وله الحرية في أن يتكلم في أيّ منها، دون أن يحظّر عليه معنى من المعاني، ولكن بشرط أن يجيد القول، وأن يتوافر في شعره المستوى الفني المطلوب، يقول: «وعلى الشاعر اذا شرع في أيٍّ معنى كان، من الرفث والضعة والنزاهة، والبذخ.. وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة، أن يتوخّى البلوغ من التجديد في ذلك إلى النهاية المطلوبة»[٢٥].

ويتجلى موقفه، في فصل الدين والأخلاق عن الشعر، بشكل واضح في تعليقه على من عاب امرأ القيس في قوله:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع
فألهيتها عن ذي تمائم محول
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له
بشقّ وتحتي شقها لم يحوّل

يقول: «ويذكر أن هذا معنى فاحش، وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجار في الخشب مثلا رداءته في ذاته»[٢٦].

«وهذا تصور من قدامة يؤكد لنا مدى اهتمام النقد العربي بالناحية الاخلاقية وموقفه منها وتفسيره وأثرها في العمل الأدبي، فإذا بنا تجده يعطي الأهمية كل الأهمية للصورة الأولى التي تتم فيها الصفة (التجارة كما ذكر)، أما الهدف الأخلاقي فلا يؤبه به على الاطلاق، إذ ليس له أي عمل في تحسين تلك الصورة أو تقييمها، فقد يكون حسنا ويخرج العمل الأدبي كريها إلى النفس، وقد يكون فاحش فلا يمنع ذلك أن يخرج العمل محببا إلى النفس مثيرا للإعجاب»[٢٧].

وفي موضع آخر يؤكد قدامة على هذا الجانب، بعزل الدين والأخلاق عن الشعر، اذ أن المطلوب من الشاعر هو حسن إجادته في هذا الفن، بغضّ النظر عن اعتقاده ومذهبه الديني، يقول: «ووصف الشاعر لذلك هو الذي يستجاد لا اعتقاده، إذ كان الشعر إنما هو قول، فاذا أجاد الشاعر لم يطالب بالاعتقاد..»[٢٨].

وقد كان موقف القاضي الجرجاني (٣٩٢هـ) في هذا المجال واضحا كل الوضوح، اذ نصّ بشكل صريح على أن الدين بمعزل عن الشعر، وعلى كل من يتصدى لنقد الشعر أن يفصل بين الاثنين، وهذا الفصل يمنع الناقد من إصدار أي حكم نقدي يرفع شعرا لما فيه من نزعة دينية، أو يخفضه لوقوفه موقفا يبدو مضاداً لها. يقول: «فلو كانت الديانة عارا على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدّت الطبقات ولكان

أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزيعرى وأضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكّاء مفحمين، ولكن الأمرين متباينان والدين بمعزل عن الشعر»[29].

وخلاصة القول أن هناك من النقاد من اختار نوعا من الشعر وفضله على أساس ديني وأخلاقي، ولما يجلبه من منفعة وفائدة، ونبذ نوعا آخر ورفضة لأنه يتعارض مع المبدأ الديني والأخلاقي. وهناك من النقاد من رفض تحكيم المعيار الديني والأخلاقي في نقد الشعر، ودعا إلى الفصل بينهما والنظر الى الشعر من الناحية الفنية والجمالية.

* المصادر والمراجع

١ ـ أمثال الدكتور سامي مكي العاني في كتابه الاسلام والشعر، والدكتور شوقي ضيف في كتابه العصر الاسلامي، والدكتور ابراهيم عبد الرحمن محمد في كتابه قضايا الشعر في النقد العربي، ونجوى صابر في كتابها النقد الاخلاقي أصوله وتطبيقاته.. وغيرهم.

٢ ـ الدكتور تامر سلوم: الأصول، دمشق ـ مطبعة عكرمة ـ الطبعة الأولى ١٩٩٣، ص٧٣.

٣ ـ الأصفهاني: الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الاولى ١٩٢٧، الجزء الأول، ص٧٤.

٤ ـ الدكتور عز الدين اسماعيل: الاسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، مصر، الطبعة الاولى ١٩٥٥، ص١٧٩.

٥ ـ اعتمدنا في عرض رأي ابن طباطبا على كتاب مفهوم الشعر للدكتور جابر عصفور، الطبعة الثانية ١٩٨٢. ص٣٨ ـ٣٩.

٦ ـ المرجع السابق: ص٤٢.

٧ ـ الدكتور إحسان عباس: تاريخ النقد الادبي عند العرب، دار الثقافة، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨١، ص٣٠٨ـ٣٠٩.

٨ ـ المرجع السابق: ص٣٠٩.

٩ ـ ابن مسكويه: تهذب الأخلاق ، المطبعة الخيرية، مصر، الطبعة الاولى بلا تاريخ، ص١٧.

١٠ ـ المصدر السابق: ص٣٠.

١١ ـ إحسان عباس: تاريخ النقد، ص٢٤٢.

١٢ ـ رسائل ابن حزم: تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة الخانجي، مصر بلا تاريخ ص٦٥-٦٦.

١٣ ـ رسائل البلغاء: اختيار وتصنيف محمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٤٦، ص٦.

١٤ ـ المصدر السابق: ص ٣٢٧

١٥ ـ المصدر السابق: ص٣٣٠

١٦ ـ إحسان عباس: تاريخ النقد، ص٥٠٣.

١٧ ـ ابن بسام: الذخيرة في محاسب أهل الجزيرة، تحقيق أحمد امين وآخرين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٩، القسم الأول، ص٧.

١٨ ـ اعتمدنا في عرض رأي حازم القرطاجني على كتاب مفهوم الشعر للدكتور جابر عصفور، ص١٦٥

١٩ ـ المرجع السابق: ص١٦٥

٢٠ ـ المرجع السابق: ص١٦٨-١٦٩

٢١ ـ المرجع السابق: ص١٧٠

٢٢ ـ الدكتور عز الدين اسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، ص ١٨١.

٢٣ ـ الحصري القيرواني: جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق علي محمد البجاري، دار احياء الكتب، مصر، الطبعة الاولى ١٩٥٣، ص ٤.

٢٤ ـ الصولي: أخبار أبي تمام، تحقيق محمود عساكر وآخرين، لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الاولى ، ص١٧٢-١٧٤.

٢٥ ـ قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الثانية ١٩٦٣، ص١٧.

٢٦ ـ المصدر السابق: ص١٨

٢٧ ـ عز الدين اسماعيل: الأسس الجمالية، ص١٨٣-١٨٤

٢٨ ـ نقد الشعر: ص١٤٦

٢٩ ـ القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق أبي الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم بيروت بلا تاريخ، ص٦٤.

لسان الدين بن الخطيب

وجهٌ للغروب

بقلم:
مصطفى الحسون

قبل قرن ونصف من الغروب الأندلسي الدامي، توهج في سماء غرناطة علم من الأعلام الأفذاذ الذين اقترن مجد الأندلسِ بألق نبوغهم، فكان من أولئك الذين أراد لهم القدر أن يكونوا رموزاً للتاريخ، فيترجمون في حياتهم وفكرهم وأدبهم مصير أمةٍ من الأمم أو يكونون ظلاً لوجهها المشرق في حقبة ما من الحقب.

واذا رحنا نتلمس في عصر الغروب الأندلسي رمزاً يختصر لنا القضية بفنه وحياته وإبداعه، وجدنا لسان الدين بن الخطيب يفسر وحده أسرار ذلك الغروب في حياته القلقة وفكره الخصب على أنه لم يكن رمزاً لعصر الغروب في حياته وحدها وإنما في مماته أفليس من الغريب إذاً أن يكون لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة سيفاً وقلماً وخلاصتها طيباً وأرجاً، أن يقتل في سجن مظلم ويحرق في حفرة مظلمة على حافة قبره؟«١»[أليس تاريخ غرناطة هوتاريخ لسان الدين؟كما ألمح المقرْي في نفحهِ[نفح الطيب]:ألم تقتلْ غرناطة في سجن الفرقة المظلم وتحرق كل محاكم التفتيش المظلمةعلى حافة قبرها؟!.]

لا ريب إذاً من أن التأمل في الحياة التي عاشها لسان الدين في خضمها يطلعنا على الأجواء التي كانت تعصف بالحياة السياسية والفكرية والأدبية في غرناطة، وقد يمكن القول بجلاء أن الأدب لم يكن يوماً من الأيام يعيش بمعزل عن الفكر وإنه لايمكن إغفال الجانب الفكري في التراث الأدبي الأندلسي فليست الأندلس ابن درّاج وابن زيدون وابن خفاجة فحسب وإنما هي أيضاً ابن حزم وابن طفيل وابن رشد، ولعلّ لسان الدين

أنموذجاً واضحاً لما بين الشعر والفكر من وشائج لأنه خاض غمار تجربة صوفية أفضت به إلى ضرب من التمزق النفسي والتأمل الفلسفي اللذين تجليا من شعره.

«٢»[كان كل شيء يوحي بالغروب في مملكة غرناطة التي آل إليها مجد الأندلس منذ أن دخل محمد بن يوسف المعروف بابن الأحمر قصر باديس في غرناطة تتقدمه الشموع (٦٣٥هـ ـ ١٢٣٨م) إلى أن خرج أبو عبدالله من قصره نادباً ٨٩٨هـ فقد انقضت أيام بني نصر فيما بين لعب بالصوالج عند (باب الرملة)، وغارات سريعة تنقض على (البقاع)، وحروب تتضرج بدماء بني سراج، وجوار نصرانيات يسبين ويؤتى بهن إلى غرناطة، ومبارزات تدور بين فرسان، ومدائن تستغلب ويفوز بها العدو كأنها عرائس سبايا لاتلبث صلوات الشكر المسيحية أن تسمع في جوانب البلاد الضائعة وتتردد فيها ترانيم العذراء سلاماً ياماريّة]

لقد بات على غرناطة أن تختتم ملحمة الأندلس المجيدة بعد أن فقدت روح الأيام الخوالي ولم يعد أمامها سوى أن تدافع يد القضاء أياماً معدودات في انتظار النهاية، ولكنها مع ذلك كانت حلقة الوصل بين عالم ماضٍ وآخر آت إذ كمنت فيها روح العصور الأندلسية الزاهية، ثم ظهرت في تراث أولئك الذين قدر لهم أن يشهدوا الغروب الأخير من أعلام غرناطة وفي طليعتهم لسان الدين بن الخطيب الذي قدر له أن يختتم حوليات الأندلس المجيدة أقوى ختام وأعظمه في النفس وقعاً.

«٣» في بلدة لوشة الراقدة على نهر شنيل الجميل ولد أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سعيد علي بن أحمد السلماني في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٧١٣هـ في أسرة علم تنتسب إلى سلمان وهو حي من مراد من عرب اليمن القحطانية «٤»[وقد دخل الأندلس عقب الفتح منهم جماعة من الشام ومنهم سلف لسان الدين وكان هذا اللقب [السلماني] يغلب عليه ولا سيما في المغرب حيث كان يُعرف «بابن الخطيب السلماني» أما لقب لسان الدين فهو مشرفي وأما لسان الدين فيقول لنا ابن الخطيب في مستهل ترجمته لنفسه في «الاحاطة» إنه ملقب من الألقاب المشرفية بلسان الدين ولم يقل لنا متى وفي أي ظروف أسبغ عليه هذه الألقاب المسندة إلى الدين كانت ذائعة في عصر ابن الخطيب بالأخص في المشرق وبما أن لوشة كانت أضيق من أن تسع طموح لسان الدين فقد يمم وجهه شطر غرناطة منذ حداثته وإن كان قد ظل وفياً لمهد طفولته طوال حياته.

وليس ثمة أخبار ذات دلالة معينة في نشأة لسان الدين، فهي كنشأة أي فتى في أسرة نابهة تمت بصلة إلى أمور العلم ونحن لا نعرف منها سوى أخبار تلقّيه العلوم عن كبار أساتذة غرناطة في عصره ثم نجده على أثر ذلك في القصر بعد أن قتل أبوه مع أخيه في موقعة «طريف» الشهيرة ٧٤١هـ فلما كان الأب يعمل في ديوان الإنشاء مع الرئيس أبي الحسن بن الجياب فقد سنحت الفرصة للسان الدين ودعي إلى القصر وكان ذلك بداية سطوع نجمه وزيراً وأديباً ولقد أمضى في صحبة ابن الجياب ثمانية أعوام تلقى فيها غالباً أصول الأدب من شعر ونثر وفي الوقت

نفسه تلقى من الحكيم ابن هذيل فيما يبدو من رواية لابن خلدون مبادئ الفلسفة يقول ابن خلدون ملخصاً هذه المرحلة من حياة لسان الدين خير تلخيص بعد أن تكلم على عمل والده عبد الله في خدمة ملوك بني نصر ونشأ ابنه بغرناطة وقرأ وتدأب على مشيختها واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسفية وبرز في الطب والأدب وأخذ عن أشياخه وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره ونبغ في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره وملأ الدنيا بمدائحه وانتشرت في الآفاق فرقاه السلطان إلى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدويين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية وكاتب السلطان بغرناطة من لون أيام محمد المخلوع من سلفه، فاستبد ابن الجياب برياسة الكتاب من يومئذ إلى أن هلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمئة فولى السلطان أبو الحجاج يومئذ إلى ابن الخطيب رياسة الكتاب ببابه مثناة بالوزارة ولقبه بها فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة وهكذا يمكن عدّ سنة ٧٤٩هـ ولسان الدين في السابعة والثلاثين بداية تألق نجمه كاتباً وشاعراً ووزيراً فقد ولي أثر وفاة شيخه رياسة الكتاب ورياسة ديوان الإنشاء ورتبة الوزارة ورقما أولى درجات السلطة في عهد أبي الحجاج يوسف، أعظم سلاطين غرناطة ٧٣٣هـ الذي كان من جلة ملوك غرناطة فضلاً وعقلاً واعتدالاً، عالماً شاعراً يحمي الآداب والفنون وهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآته وأفخمها، ومنذ موقعة طريف ٧٤١هـ التي حدثت في عهده باتت مملكة غرناطة تعاني من مصائب جمة في صراعها مع القشتاليين الذين كانوا يتربصون بها الدوائر على الرغم من نجدة بني مزين وعلى رأسهم السلطان المجاهد أبو الحسن المريني للمملكة كلما هزها أمر، ولقد شاء القدر أن يتوفى السلطان أبو الحسن ٧٥٢هـ وأن يكون لسان الدين سفير السلطان أبي الحجاج إلى المغرب للعذاء في وفاة السلطان الذي لم يتوانى قط عن نجدة غرناطة والذي كان من أعظم أعماله استخلاص جيل الفتح من النصارى الذين كانوا يسيطرون عن طريقه على مدخل الجزيرة ولعل لسان الدين لم يكن يدري آنذاك أن المغرب سيكون ملاذه كلما عصفت الفتن بغرناطة فيما بعد، وأنه سيقضي شطراً من حياته متنقلاً بين العدوتين إذلم تلبث المنون أن اختارت السلطان أبي الحجاج إلى جوار ربه مطعوناً وهو يؤدي صلاة عيد الفطر ٧٥٥هـ وخلفه ابنه الغني بالله محمد، فقرب إليه لسان الدين وجعله مطلق الجراية ظاهرالجاه والنعمة ثم تضاعف العز كما يقول لسان الدين «٤»[وتمخض القرب فنقلني من جلسة المواجهة إلى صف الوزارة، وعاملني بما لا مزيد عليه من العناية، وأحلني المحل الذي لافوقه في الخصوصية] ثم بعثه سفيراً إلى السلطان أبي عنان الذي خلف والده أبا الحسن في إمارة المغرب يحثه على تجديد عهد المؤازة لغرناطة في النائبات وأنشده يومها لسان الدين في سفارته

خليفة الله ساعد القدر
علاك مالاح في الدجى قمر

ونجح نجاحاً باهراً فاستأثر بثقة سلطانه الذي أسبغ عليه لقب «ذي الوزارتين» [السيف والقلم] بيد أن ذلك لم يوم طويلاً ولم يَصفُ الرفان له إذ سرعان ماذهبت أحلاماً بددا في الفتنة التي فقد فيها الغني بالله ملكه أثر انقلاب أخيه السلطان اسماعيل ٧٦٠هـ. وفقد بعدها لسان الدين منصبه ونفوذه وأملاكه التي نهبت واستؤصلت وراح يطوف في أرجاء المغرب محاولاً الابتعاد عن السلطة والدولة ولم تكن منه جفوة بل محاولة للابتعاد عن سلطانه المنفي في مدينة «سلا» للنجاة بنفسه من أتون السياسة المحرق والتفرغ للعزلة التامة في بلدة «سلا» الوادعة التي كانت مشهورة بالزهد والزهاد، لكن مقامه لم يستغرق «بسلا» أكثر من سنتين ٧٦١-٧٦٣هـ وربما كان هذا دليلاً على أنه بحياة الخلوة والبعد عن السلطان وما تتيحه له من تفرغ إلى ماتتشوف إليه نفسه من أمور الفكر والزهد بما يجمع الدنيا والآخرة.

وعندما رجع الغني بالله إلى ملكه ٧٦٣هـ ألح على لسان الدين في العودة فعاد مُكرهاً وحرم نفسه حلوة تمناها، فوجد نفسه هذه المرة غريباً في الأندلس وفي السلطة وبدأ يحس بنظرات الحساد والأعداء إليه فراح يلح ويلح في طلب التخلي عن السلطة دون أن يوافقه الغني بالله فهرب إلى «سلا» التي وجد فيها طلاوة الحياة سابقاً لما تجمعه من الدنيا والآخرة وهناك التقى بالسلطان عبد العزيز المريني ٧٦٨هـ واتصل به سراً ولكن صفو الرفان لم يدم له حيث مات السلطان وانتقل لسان الدين إلى فاس بصحبة الوزير ابن غازي الذي استبد بالأمر بعد السلطان وعزم على التخلص من لسان الدين لما بلغه من قيامه بدور خطير في تحريض السلطان عبد العزيز على غزو الأندلس.

وكانت وثيقة الاتهام جاهزة يخطها خصمان لدودان وتلميذان سابقان [ابن زُمَرك] ربيبه السياسي والأدبي و[أبوالحسن النباهي] الذي كان للسان الدين الفضل بتعيينه في القضاء، ورموه بالزندقه تهمة العصر أوتهمة مالا تهمة له وهي مبرراً كافياً للقتل والإعدام وأخفق مسعى الخصوم عند الوزير ابن غازي بيد أن مداهمة السلطان عبد الغني وقلبه السلطة وتوليته أبي العباس على طنجة، وكان لهذه الأحداث وقع أليم في نفس لسان الدين لأن تصفيته كانت من الشروط الأساسية لدعم الغني بالله للسلطة الجديدة.

ولم يلبث ابو العباس أن اعتقل لسان الدين بإغراء من وزيره سليمان بن داود الذي خان سلطانه ابن غازي سابقاً، والذي كان يكن الحقد والضغينة لابن الخطيب منذ أن صده عن منصب مشيخة الغزاة لما سعى إليه عند عبد الغني بالله.

وعلم الغني بالله بالأمر فأرسل ابن زمرك للتهنئة ظاهراً للتحريض على الخلاص من لسان الدين باطناً، ورأى ابن زمرك في هذه المهمة شفاءً لغله فأخلص بها خير إخلاص واسمحوا لي أن أقطع هذا

التسلسل التاريخي والأحداث الموثقة لنتساءل معاً ماذا جنى العرب والسابقون من قتل الشرفاء على مدى الزمان وهل قدر الوجود أن يبقى الخير والشر متصارعان إلى يوم القيامة، لقد خلق الله عز وجل الإنسان ومنحة نعمة العقل تفضيلاً على سائر الخلق فالأنسان مُنح مالم تمنحه الملائكة حيث خلق حراً في الفكر والإرادة ليختار الطريق القويم أوسواه بمحض إرادته ولانريد الخوض في مسألة التخيير والتسيير فهي مسألة محسومة لصالح الدين والاسلام بأن الانسان يعمل بخياره ماقدره الله عليه نتيجة علم الله المسبق ليكينونة فكره وعقله.

ما أريد قوله: لماذا اختار البشر أن يكونوا طرائق بعضهم إلى الشر والفساد والضغينة والثار فماذا جنى الخونة والقراصنة عبر الدهر، غير الخزي والعار والفضيحة إننا بعد وقفة طويلة على تاريخ بعضه غابر، أولى لنا فأولى أن نعتبر ونجعل من أنفسنا حَراساً على الأخوة والأمانة والعقيدة، وللعلم فإن ابن زمرك رأس الفتنة دارت عليه الدوائر فاقتحم عليه بيته وفُعل بنسائه وبناته وفعل به شر فعال خلدها التاريخ وخلدها هو موصياً ألا يُغر بهذه الدنيا ولايصحبة أحد فيها أحد.

لقد ويخ لسان الدين في مجالس العلن وتجرع الوان العذاب على يد السلطان ابن الأحمر وحبس في شر محبس وربما أحس بقرب الأجل فقال منشداً «٥»

بعدنا وإن جاورتنا البيوت
وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة
كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً
وكنا نقوت منها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا
غربنا فناحت علينا السموت
فكم خذلت ذا الحسام الظبا
وذا البخت كم خذلته البخوت
وكم سيق للقبو في خرقة
فتى ملئت من كساء التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيـ
ـب وفات ومن ذاالذي لايفوت
فمن كان يفرح منكم له
فقل يفرح اليوم مَنْ لايموت

ثم أفتى بعض الفقهاء [الفقراء إلى الفقه] بقتله، فقتل خنقاً في سجنه ثم وضع على حافة قبره طريحاً وقد جمعت حوله الأعواد وأضعت عليه النار فاحترق شَعره واسودت بشرته فأعيد إلى حفرته وهكذا راح ابن الخطيب رغم توسله للسلطان أبا حمو، ورغم بذل ابن خلدون كل ما بوسعه لانقاذ صديقه لكن دون جدوى فراح يوبد في ظلمات سجنه آهات الوداع الصادرة عن روح أدركت أن النهاية باتت وشيكة فبكى وشعر بالموت حوله فأنشد ما ذكرناه من أبيات منذ قليل.

وإنه بين يدي الآن بحثاً مطولاً حول لسان الدين وشعره ودراسة تفصيلية لبعض أشعاره بيد أنني لاأرغب في الخروج عن العنوان [لسان الدين وجه للغروب] الغروب الأندلسي الكبير الذي

أُسِسَ له بمثل هذه الأعمال التي تهز وتزعزع أبناء الأمة من داخلهم ويتحولون إلى بنيان هش يسهل اقتحامه والنيل منه ومن حماته وهكذا أسدل الستار عن حلم الأندلس الجميل الذي مازلنا حتى اليوم نبكيه ونشتم في ذكراه عبق الرياحين ونشوه التاريخ ونقرأ في زوايا قصر الحمراء وغرناطة وإشبيلية ملاحم الأجداد وليس من عبث أن يبكي الشاعر الكبير الراحل عمر أبو ريشة في قصيدته «في طائرة» «٦»

وثبت نستغرب النجم مجالا
وتهادت تسحب الذيل اختيالا
وحيالي لي غادة تلعب في
شعرها المائج غنجاً ودلالا
قلت ياحسناء مَن أنت ومِن
أي دوح أفرع الغصن وطالا
فَرنت شامخة أحسبها
فوق أنساب البرايا تتعالى
وأجابت أنا من أندلس
جنة الدنيا سهولاً وجبالا
وجدودي ألمح الدهر على
ذكرهم يطوي جناحيه جلالا
إلى أن تقول هذه الاندلسية:
هؤلاء الصيد قومي فانتسب
إن تجد أكرم من قومي رجالا
أطرق القلب وغامت أعيني
برؤاها وتجاهلت السؤالا!!

يحق لأبي ريشة أن يتجاهل السؤال ويبكي مجده ومجد الصبية التي لاتعرف مشاركته لها تراث الجدود وعظمتهم.

وختاماً أقول إن لسان الدين بن الخطيب يعتبر بحق وجه للحضارة الاندلسية وازدهار فكرها وفنها من جهة، ووجه لغروبها وسقوطها من جهة أخرى وأنني سأودعكم بأبيات نظمتها وقت كنت في سنتي الجامعة الثالثة عندما أعددت بحثاً عن هذا الأديب وحزنت لفاجعته وأدركت مصابه فقلت:

نجومَ الليل حقَّكِ أن تغيبي
كما للشمس من قبل المغيب
وحق لكل أزهار الروابي
بأن تبكيك ياإبنَ الخطيب
قُتلتَ وما انطفاؤك غير وجهٍ
لأندلسٍ تساقط في الذنوب
فإن حرقوك إرواءً لحقدٍ
فهل نثر البخور سوى الطيوب
شذاك يظل نبراساً لمجدٍ
أضاعته المنون من القشوب
هي الدنيا تدور فلا تبالي
وحسبك ما أخذت من النصيب
فمن أوش لقتلك مات غدراً
لعمري تلك من حكم الخطوب
فإن تك غيبتك يدُ أساءت
ستجزَى عند علامٍ الغيوب

هوامش:

١ـ لسان الدين بن الخطيب فنه وفكره د.عصام قصبجي منشوراً جامعة حلب.

٢ـ الشعر الأندلسي:غارسيا غوس ص٧٣ ترجمة دكتور حسين نونس ط٣ـ القاهرة

٣ـ لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري محمد عبدالله عنان ط١ ١٩٦٨ص٩

٤ـ نفح الطيب للمقري: تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد ج٧ص٥

٥ـ الموجز في تاريخ الأدب الأندلسي والمغربي د.هناء دويدري ص١٧٠.

٦ـ ديوان عمر أبو ريشة من وحي المرأة ص٤٧ط١ تموز ١٩٨٤ منشورات دار طلاس

الإسلام والغرب

في مهرجان الجنادرية الحادي عشر

ج ١

بقلم:
عبد اللطيف أرناؤوط

كل أمة تسعى جاهدة لتثبيت لحظات الزمن المجيدة من تاريخها، ليكون لها عظة فيها واعتبار، وتواصل وتلاحم بين التالد والطريف، والماضي والحاضر. يطل علينا مهرجان الجنادرية للمرة الحادية عشرة بإشراف الحرس الوطني، ليتيح لنا أن نعيش معه لحظات من الزمن الهارب، وهي لحظات تحرص الأمة على تثبيتها في ضمير الانسان العربي المسلم قبل أن يطويها التاريخ في مدّه، وتصبح من الأوابد. وحين تحرص المملكة العربية السعودية أن تثبت صورة تراثها العريق في أذهان مواطنيها، فإنما يدفعها الى ذلك رغبتها في أن تربط الأجيال بماضيها المجيد، فالأمة التي لا تُعنى بماضيها وتراثها لا يمكن أن تقيم جديدها على أسس راسخة من الأصالة، فالتراث سفر أصالتنا عرباً مسلمين، فيه تتجلى ممارسات الآباء والأجداد، وهم يكافحون فوق هذه الأرض التي خصّها الله بأشرف رسالة، وهي رسالة الاسلام، وفي ملامحه قصة ذلك الكفاح المشرف الذي خاضه آباؤنا لاستمرار بقائهم فوق الأرض، وإعلاء مُثلهم التي نافحوا دونها وضحّوا من أجل إقامة حضارة راسخة علّمت العالم معنى الكرامة والحرية ونبل الهدف.

ومهرجان الجناديرة حين ينسج من خيوط التاريخ ملامح تراثنا العربي، وينتزعُ من شفاه الزمن ما تبقى من معالم هذا التراث فإنه يتيح للماضي شرعية الحضور.. ليطل على الحاضر وينير الطريق الى المستقبل بلون من التزامن الذي يجعل لوجودها معنى حقيقياً فنحن في مواجهة الثقافات الوافدة.نحتاج الى سند يعصمنا من الذوبان امام اغراء الجديد ومظاهره البرّاقة وسبله المادية التي تتسم بقوة الجذب وخطر التماهي في الآخرين. تحت تأثير حضارة مادية تجيد الاعلان عن نفسها بشتى الوسائل، حتى

لكأن الشيطان يتطوع في كل لحظة ليغري الانسان العربي بالسقوط في حبائلها دون أن يشعر.

ومما جاء في كلمة الشيخ (عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري) التي ألقاها في حفل الافتتاح قوله:

(في هذا اللقاء المبارك، تستوحي كلمة هذا المهرجان من روح الاسلام، وتراث الأمة الأصيل، تصوراتها مما قد يثار في هذا اللقاء من حوار هادف الى الخير. فلقد عبرت فكرة هذا المهرجان نطاقها الجغرافي والاقليمي، الى عالم واسع تتلاحق فيه النظريات الاكتشافات العلمية، وتتداخل فيه الثقافات والمفاهيم، ومما سيدور حوله الحوار (الاسلام والغرب) ولما لهذا الحوار من حساسية بالغة الأهمية، يتطلع الانسان المسلم اليوم، الى ان يرى حقائق الإسلام وثوابته، وسموه الانساني وسماحته وعدالته ونظرته الى العلم ماثلين في عقل المحاور وفكره. فالاسلام محقق للعدالة، لا مفاضلة لأحد على أحد الا بالتقوى.

ومما أوحى بفكرة الحوار بين الاسلام والغرب، تلاحق التهم الباطلة، والمفاهيم الخاطئة عن الاسلام، عند البعض في هذا العالم، والاسلام من ذلك بريء، فكل سلوك سلبي رديء قام به فرد أو جماعة، في تاريخ المسلمين أو يقومون به اليوم، يرفضه الاسلام ويبرأ منه، مما يوجب على كل مسلم ان يعرف برسالة الاسلام ما استطاع الى ذلك سبيلاً، فليس لأحد عذر في ذلك في عالم الاتصالات اليوم، حيث لم تبق عزلة على وجه الارض يأمن فيها الانسان على معتقداته، فلقد التقى العالم لكنه على معطيات العلم الحديث، كلمة وصوتاً وصورة، خيراً أو شراً..

وعلى الرغم مما كان لأمتنا في التاريخ من جلائل الأعمال الانسانية فان هذا العصر يرتاب في حاضر الأمة القائم اليوم، ومن عفّ عن ذلك يضعها في درجة دنيا من سلم الحضارة المعاصرة.

وقد يثير حاضرُ الأمة سؤالاً تاريخياً: لماذا تراجعت الدولة الاسلامية الكبرى من أقاصي آسيا وافريقيا واوروبا بعد ان بقيت هناك في الاندلس ثمانية قرون، وماتركت غير اطلال هناك لا يذكر فيها اسم الله؟ وسؤال كهذا قد يلحق به الجواب عابثاً، فالمشاحنات وتقطيع أوصال الدولة الكبرى الى دويلات مع السلوك الرديء سبب ذلك، ولأننا اليوم في عصر التكتلات البشرية، ولاننا امة حضارية، لنتذكر ذلك كلما جاءت المناسبة، دون حرج، وان أوجعنا التذكر وأحزننا، ولكننا بالرغم مما يعترض طريق هذه الأمة من معوقات في استعادة دورها التاريخي، فإننا بعون الله وفضله، سنلتقي على هدف جليل يحمي وجودنا وعقيدتنا ومصالحنا).

كما تحدث الدكتور (عبد الرحمن سبيت السبيت)، عن أهمية المحاور الفكرية التي طرحت للمناقشة في الندوة.. فقال:

(إن النشاط الفكري وهو يطرح في كل عام موضوعات تهم أمتنا وتهم الانسانية جمعاء يفعل ذلك من منطلق الثقة بالله ثم بأمتنا وحضارتنا العربية الإسلامية التي بنيت على أسس أخلاقية مطلقة كرّمت بني أدم جميعاً بصفتهم الانسانية، وأعلت من شأن العدل لا تحيد عنه ولايصرفها عن حب أو شنآن وهي حضارة أظلّت الانسانية كاملة وأطلقت جهود الانسان للبناء، والعلم والرفاهية، وتنقل في ارجائها العلماء من كل جنس ولون ودين، ولم تقف لها حدود أمام التبادلات من كل نوع فانتقلت الاموال والبضائع والسكان في ذلك الاتساع الهائل الممتد من المحيط الهادي الى المحيط الاطلسي ومن أعماق آسيا شمالاً الى

اعماق افريقيا جنوباً وكانت تلك الحضارة هي الاساس في النظام الدولي، والتمعن في احوالها واستخلاص خلاصات نافعة تدلها وتهدي مسيرتها في متاهة الحضارة العالمية والنظام الدولي الجديد.

إن امتنا اليوم ليست في احسن احوالها وهي تتهيأ للاستئناف مسيرتها الحضارية لاستعادة دورها المبدع القائد، إن عثرات كثيرة تعترض السبيل وإن آفاقاً جديدة تطل على الخطاب العربي والاسلامي لم يعهدها من قبل. وإن اضواء الفكر الكثافة هي التي تحتاجها امتنا اليوم لعلّها تجد علي نورها هدى ورشاداً.

إن المحاور الفكرية التي طُرحت للمناقشة في ندوة هذا العام تلخص بعض المشكلات التي تواجه أمتنا، بل هي في الواقع تواجه الحضارة الانسانية كلها، والخير كل الخير هو في ان نبين ما تستطيع امتنا ان تقدمه للحضارة الانسانية لكي يتحول الصراع الى تعاون ولكي تعدل الحضارة من التناكر والتدابر الى التعارف والتعاون، فهذا الكوكب الأرضي اليوم يبدو أصغر من أن نتصارع عليه. كما ان ثورة الاتصالات والعلم والمعلومات شاملة عميقة الى درجة يؤمل معها ان تجلعنا أعقل من أن نتفانى ونتقاتل. وان أمام الانسانية كلها بكل تنوعاتها الحضارية من المشكلات والاعمال التي تنتظر الانجاز ما يستغرق كل جهودنا.

وان امتنا العربية الاسلامية وحضارتها العريقة ما تزال إن شاء الله قادرة على العطاء والنمو من جديد لمعانقة هذا العصر اثرائه والافادة منه).

* * *

وتوجه الدكتور علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب الى المشاركين في المهرجان بكلمة متميزة.. كان لها الاثر العميق في نفوس الحضور..و خير دليل على هذا التجمع الثقافي في مهرجان الفكر والابداع، أقتطف منها فقرات بارزة:

(لقد غدا مهرجان الجنادرية موعداً سنوياً للثقافة الجادة، والموضوعات الحية والقضايا الراهنة، في اطار الندوة الفكرية، وغدا عكاظ الفن والأدب، وفرصة للقاء والتجدد والتجديد في إطار الأصالة من خلال عمق الانتماء وسماحة الاخاء. ولا أظن أن بلداً عربياً يستطيع ان يتيح مثل هذه الفرصة للمثقفين، وان يستمر فيها، وان ينوّعها ويزيدها اتساعاً وانفتاحاً على الثقافات الاخرى، لتلتقي في دارتها عقول وأفكار وطاقات ابداعية من بقاع شتى، ويكون في لقائها الخير للثقافة والابداع)، وأضاف: (إن الثقافة تتحمل في هذا العقد من الزمن، وفي العقود القليلة القادمة مسؤولية أكبر بكثير مما يلوح في الأفق، فهي بعد انتهاء الحرب الباردة، وإقبال عصر التنافس الاقتصادي ولتقني، ساحة لقاء الأمم وصراعها، هي ألسنتها وأسلحتها ومفترقات لقائها، ومراكز ذلك اللقاء، وهي الساحة التي يمكن ان يتبين فيها للناس الحق من الباطل، وان يضعوا فيها، ومن خلالها، حداً لحالات من التبعية والغزو والمحو الإلحاق والاستلاب والتخريب يقوم بها بعض البلدان.

واذا ما أفحل أهل الثقافة في إقامة حوار بنّاء بين الثقافات والأمم، على أرضية من المعرفة والثقة والاحترام والرغبة التامة في فهم الآخر المتمايز بالضرورة، لا المتميز بالضرورة، فإنهم يستطيعون بذلك أن يقيموا جسور التواصل البنّاء، وان يؤسسوا للسلام العادل حقوقاً ووجوداً وأمناً من جوع وخوف، وهم مطالبون بدخول حرم الجوار والمثاقفة باخلاص ووعي واقتدار).

وقال ايضاً:

(لقد رُسِمت لثقافتنا بمسقوماتها

الرئيسة، ولشخصيتنا، ولعقيدتنا صور مشوهة، فيها من الاذى والتجني والاغراض ما لا يرضي الناس، ولا الوجدان ولا الحق، وتمّ تناسي الممارسات التي تمت ضدنا، صهيونية ومتصهينة، كما تمّ تناسي أننا لم نعرف في تاريخنا محاكم التفتيش ولا التصفيات العرقية على أساس الدين كما يحدث في البوسنة والهرسك والإبادة الجماعية وطرد الشعوب من أوطانها واستلاب تلك الأوطان كما حدث ويحدث في فلسطين المحتلة من قبل الصهاينة الذين يفتخرون بأمثال (بياروخ غولدشتاين) الذي قتل المصلين في الحرم الابراهيمي وهم ركع سجود لله تعالى، كما الحقت بمقاومتنا المشروعة دفاعاً عن الوطن، والنفس والعقيدة صور الارهاب، ولسنا من الارهاب في شيء، كما لايجوز ان يحمل على الاسلام فعل كل مسلم حتى لو كان منافياً للاسلام، كما تناسى الغرب أن ديننا لايقبل منا اذا لم نؤمن بالسيد المسيح ونكرم مريم ابنة عمران، بل ونرسم للمسيح ولمريم صورة اسمى واكرم بكثير مما جاء في التوراة والانجيل.

وليس لنا من سبيل الى تغيير تلك الصورة المشوهة التي تعمم عنا في العالم، الا البحث الجاد والصبر، وبذل الجهد والحوار، لتقديم عقيدتنا جوهر ثقافتنا للآخرين بصورتها الحقة، ومراجعة صور من الفهم والاداء مراجعة تقوم على التمكن العرفي ورسوخ الايمان وسلامة الانتماء لامة في واقعها، عالمين بقوله تعالى: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

وأردف قائلاً:

(أما في داخل الساحة الثقافية العربية، أو في دارنا الواسعة المتشاطئة مع الغرب والشرق، فإننا مطالبون بوضع حد لتبعية الثقافة للخلافات السياسية العربية، خلافات الأنظمة والحكام، لتكون في خدمة الحق والأمة والمصلحة العربية العليا، ولتكون قادرة على رؤية الحق ونصرته، ورؤية الظلم ومجابهته، وليتمكن اهل الثقافة من خوض افضل الجهاد (كلمة حق في وجه سلطان جائر) وان يكون لهم حضور في ساحة القرار السياسي العربي لصالح ما يجمع ويقوي وينقذ.

واهل الثقافة مطالبون بمراجعات حازمة للذات والتوجهات وبالا يضعوا العروبة في مقابل الاسلام، والاسلام في مقابل العروبة، لان ذلك يضعف كلا من العروبة والاسلام ويسيء اليهما، ومطالبون بأن ينزلوا الثقافة منزلتها اللائقة بها، فلا تكون بوقاً في ركاب الظلم ولا ستاراً للبغي والاضطهاد، ولا مسوغاً للذل، ولا سمساراً وبائعاً وشارياً في سوق الكلام الذي تفتحه بعض الانظمة العربية والجهات الخارجية على مصراعيه، فتفسد بذلك أقلاماً وضمائر، وتجيِّر جهداً كان يمكن أن يوظف للبناء، تجيِّره لتخريب المواقف وتشويهها، أو تجعله «شيطاناً اخرس» يسكت على التخريب).

(إن صورة القوى وتوزعها وتحالفاتها في عامل اليوم ليست هي بالضرورة صورتها الى الأبد، وضعف العرب اليوم ليس قدراً منزلاً، ولن يدوم الى الأبد أيضاً، ولا نرى فيما هو قائم اليوم نهاية للتاريخ، فالتاريخ صفحات مفتوحة، وكل أمة تستطيع ان تصنع تاريخها وتؤثر في صنع التاريخ، والتاريخ حركة لانه سجل الحياة من بعض الوجوه، ومنطق الحياة يقر منطق الحركة، وهي لا تعرف الجمود والركود، فهي التغيير المستمر بأشكال مختلفة، وعلينا ان نستثمر منطق الحياة والتاريخ، ونسير معهما ونحاول ان نؤثر في مساراتهما.

إن الثقافة حامل الوعي والمبشر به والمستفيد من استمراريته ومن عطائه،

وينبغي الا تكون عامل تثبيط واحباط تدخل اليأس والقنوط الى النفوس، وتزين الاستسلام والانهزام والخنوع ليغدو مناخ النفوس والاوطان حقلاً يخصب فيه شبه سلام، وذلك هو سلام العدو يفرضه علينا بصيغ ومسوغات شتى، وسلام الأقوياء يفرضونه على الضعفاء بذرائع ووسائل شتى فلتعلن الثقافة العربية انها لن تكتب صكوك الاستسلام بدماء شهداء الأمة ولن تزين ذلك أبداً وأنها ستحافظ على شرف الحرف باستنباته فكراً وابداعاً وعطاء على جذع شهادة وروح التسامح ومصلحة الأمة.

ولتعلن أنها مع التسامح الذي لا يفرط بالحق ولا يشوه الأصول، وانها تستنبت في جوهر العقيدة وبراعم اللغة، وانها الحارس الأمين للشخصية العربية والحق والوطن والاصالة والتراث، وانها البوابة الأوسع للمثاقفة وحوار الثقافات بثقة ووعي واقتدار.

ان قدر الثقافة العربية اليوم أن تثبت الارادة وتحافظ على الصلابة الروحية في الاعماق، وان تقاوم الانهزام، وان نكون لسان الحق والعدل والسلام العادل بين الناس وهي سلاح الأمة بعد أن فقدت الأمة معظم أسلحتها أو كادت).

* * *

وانه لمن دواعي التقدر ان يكون هذا المهرجان السنوي نافذة نطل منها على هويتنا الثقافية الاصيلة، ونلتمس من خلالها خصوصيتنا الانسانية، واستعادة صورة ذلك التفاعل الخلاق بين شعبنا وارضه، وهو تفاعل يتيح للاجيال من أبناء الأمة العربية ان تتمسك بموروثها، وتضع يدها على سماته المميزة من خلال دراسات جادة تفتح اذهاننا لمعرفة معنى حياة الآباء وقيمهم السامية، ولنقف على ذلك التساوق والتوازن العظيم بين حليمات الجسد ومتطلبات الروح في ممارسات هؤلاء الآباء وهم يبدعون حضارتهم بكل عقلانية وشعور دون طغيان جانب منهما على الجانب الآخر، وفي اعتدال ينفي كل تهور في السلوك، ويوائم بين ما تريده الأرض منا وما تطلبه السماء.

ان هذه المشاركات والمحاضرات التي سأقدمها بايجاز واختصار، والتي تعبر عن آراء أصحابها من مستشرقين ومفكرين جاؤوا من أنحاء العالم، ليدلوا بآرائهم حول (الاسلام والغرب)، وهذه الفعاليات الحميمية كانت قيمة تضمنت وجهات نظر مختلفة وآراء متباينة إلا أنها لم تكن شاملة جامعة.. أما أنا فقد اتفق مع تلك الحوارات الفكرية.. وفي الوقت نفسه قد اختلف مع بعض منها..

وحسبي أن أقول إن ندوة «الاسلام والغرب» قد حققت الكثير لخدمة الفكر الاسلامي، وأوضحت مكانة الاسلام في الفكر العالمي..

* * *

*** موقف الاسلام من الاديان والحضارات الاخرى**

د.جعفر شيخ ادريس
الولايات المتحدة

أ ـ صدام الحضارات:

تساءل المحاضر عن صدام الحضارات.. هل هو أمر لازم؟

وقال: اننا نعيش في عصر ما تزال وسائل المواصلات والاتصالات فيه تتزايد سرعتها وكفاءتها يوماً بعد يوم، فيزداد بازديادها انتقال الناس والأشياء والأفكار سهولة وسرعة.. وبذلك يزداد تشابك مصالح الناس ويكثر اعتماد بعضهم على بعض ويقوى تأثير بعضهم في بعض.

لا.. لم يعد اذاً من الممكن لأية أمة تريد تحقيق مصالحها أن تعيش منعزلة غنية بنفسها عن غيرها، مهما كانت قوتها الاقتصادية وإمكاناتها العلمية والتقنية

والبشرية، بل أصبح من الضروري لكل أمة أن تكون ذات نظرة عالمية، أن تهتم بسياستها الخارجية كاهتمامها بالسياسة الداخلية، لكن الناس في عصرنا مازالت تتقاسمهم ـ حتى في بلد واحد ـ الأديان والثقافات على المستوى العالمي.

تُرى. أمن الممكن لسكان هذه القرية الأرضية، المنقسمين الى فرق وطوائف، ان يعيشوا في سلام وأمن وتعاون لتحقيق مصالحهم.. أم ان الصراع هو بين ثقافاتهم على المستوى المحلي وبين حضارتهم على المستوى العالمي.

تُرى.. أمن الممكن لكسان هذه القرية الأرضية، المنقسمين الى فرق وطوائف، ان يعيشوا في سلام وأمن وتعاون لتحقيق مصالحهم.. ام ان الصراع هو بين ثقافاتهم علي لمستوى المحلي وبين حضارتهم على المستوى العالمي..

لا أحد يستطيع ان يجزم.. فعلم المستقبل عند الله، وتصرفات البشر يصعب التنبؤ الجازم بها لمَا يعتريها من عدم العقلانية في كثير منَ الايحان. لكن الأمر يستدعي النظر والتأمل، فلا بد للمفكرين والعلماء من ان يولوا هذا الامر من العناية ما يستحق من عمل وتخطيط.

المفكرون في الدول الكبرى هم أكثر الناس اهتماماً بهذه القضية، لانهم يقدرون خطرها.. ويمكن لتخيص توقعاتهم في أربعة آراء:

١ ـ منهم من يرى ان الصدام بين الحضارات لا بدّ منه، فهو ينصح قومه باعداد العدة له للدفاع عن الحضارة الغربية.

٢ ـ ومنهم من يرى أن الصراع الثقافي، قد بدا في داخل الحضارة الغربية.

٣ ـ ومنهم من يري أن الحضارة الغربية في شكلها الاميركي المتفوق، والمتمثل في الليبرالية السياسية، واقتصاد السوق هي مطمح أنظار الأمم، والغاية التي يتسابقون اليها، وحين يبلغونها، فتلك هي نهاية التاريخ في هذا المضمار.

٤ ـ ومنهم من يرى أن التعايش السلمي بين الثقافات والحضارات ممكن اذا اتخذ الناس سبيل الديمقراطية العلمانية التعددية.

* * *

ب ـ طبيعة العصبيات الثقافية:

ترى.. ما الموقف الذي يجب على المسلمين اتخاذه ازاء الثقافات والحضارات المخالفة للاسلام في عصرنا هذا، وفي ظروفنا هذه، إن الناس يهتدون في اتخاذهم لمواقفهم بما عندهم من علم، وبما وهبهم الله من عقل وتفكير، لكن المسلمين يهتدون الى جانب ذلك بما حباهم الله تعالى من هداية القرآن الكريم.. (إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم) سورة الاسراء٩.

وهدايته ليست هداية دينية بالمعنى المحدود الشائع في عصرنا لهذه الكلمة، بل انها هداية تشمل كل ما يحتاج اليه الناس افراداً وجماعات في أمورهم الروحية والجسدية، في حياتهم الدنيوية.

انه يعطينا حقائق عامة عن المجتمعات البشرية اذ يحاول علماء الاجتماع ان يصلوا اليها بدراساتهم التجريبية.. وان تعاليم القرآن تعطيهم حقائق مهمة قد لا يستطيعون الوصول اليها.. بجهودهم البشرية.. ومن هذه الحقائق الاجتماعية:

١ ـ ان كل جماعة من البشر ترى ان ما هي عليه من المعتقد والقيم والعمل أفضل مما عليه غيرها، مهما كان باطلاً بمقياس الشرع والحق، (كذلك زينا لكل أمة علمهم، ثم الى ربهم مرجعهم، فينبئهم بما كانوا يعملون) سورة الانعام ١٠٨.

٢ ـ كلما كان غيرهم اقرب اليهم كان

أحب اليهم.

(وإن كانوا ليفتنوك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره، واذاً لاتخذوك خليلاً) سورة الاسراء٧٣.

٣ ـ إنهم لا يرضون رضى كاملاً الا عمن كان على شاكلتهم. (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم).

٤ ـ إن حرصهم على ان يكون غيرهم معهم، يدفعهم للضغط على المخالف بانواع من الضغوط قد تصل احياناً الى الضرب او السجن او النفي او حتى القتل.

(واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) سورة الانفال الاية ٣٠.

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا او لتعودن في ملتنا. قال: أولو كنا كارهين) سورة الاعراق الآية٨٨

٥ ـ إن من أهل الأديان والحضارات من يعد دينه او حضارته من خصائص قوميته او عرقه فلا يريد للآخرين ان يشكروه عليها، بل يراهم مساوين له حتى من الناحية الانسانية، لذلك لا يرى لنفسه خيراً من ان يلتزم في تعامله معهم بالقيم الخلقية.

(ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده اليك، ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده اليك، الا ما دمت عليه قائماً، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) سورة آل عمران.

٦ ـ لكن أولئك وهؤلاء جميعاً يريدون لمعتقداتهم او لحضارتهم ان تكون هي المسيطرة، وان يكون أصحاب الحضارات الاخرى خدماً لمصالحهم، هذه الرغبة في السيادة والسيطرة تدفعهم لأن يعدوا العدة لضمان بقاء حضرتهم والدفاع عنها في حال وجود خطر يهددها، والعمل لاخضاع الآخرين لها. وهم يستعملون كل امكاناتهم التي يرونها مساعدة لتحقيق هذه الاهداف بما في ذلك اللجوء الى القتال. انهم لا يخفون شيئاً مما سبق ذكره، بل يعلنون عنه في صراحة، فالقرارات التي تتخذها الأمم المتحدة او مجلس الأمن أو صندوق النقد الدولي والتي تعبر عن مصالح الغرب.

ويمنح الشرعية لكل الأعمال المعبرة عن مصالح الولايات المتحدة وسائر القوى الغربية، فعن طريق مؤسسة النقد وسائر المؤسسات الاقتصادية الدولية يسعى الغرب لخدمة مصالحه، ويفرض على الأمم الأخرى السياسات الاقتصادية التي يراها مناسبة.

يقول احد المفكرين:

«ان الغرب هو المسيطر الآن على المؤسسات العالمية السياسية والاقتصادية.. وان الهدف من الحد من انتشار الاسلحة خلال الحرب الباردة كان تحقيق توازن عكسري مستقر بين الولايات المتحدة وحلفائها والاتحاد السوفييتي وحلفائه.. أما في عالم ما بعد الحرب الباردة، فقد صار الهدف الأول من الحد من الأسلحة هو منع الدول من تطوير قدرات عسكرية قادرة على تهديد المصالح الغربية. ويحاول الغرب ان يحقق هذا عن طريق الاتفاقات الدولية والضغوط الاقتصادية، والحد من نقل تقنية السلاح والعتاد).

ج ـ الموقف الاسلامي من حيث المبدأ:

تلك هي مواقف الحضارات بعضها من بعض بصفة عامة، فما موقف الاسلام منها، اي الموقف الذي تهدي اليه نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية؟

إن سلوك المسلمين متأثر بهذه النصوص على درجات متفاوتة في الموقف الذي تهدي اليه هذه المبادىء القيمة:

١ ـ المعتقدات:

من الملاحظ من تعاليم القرآن الكريم انها تميز بين الحكم على المعتقدات ومعاملة المعتقدين. ان معتقدات الناس، دينية كانت أو غير دينية متعددة مختلفة، لكن الذي يعطيه الاسلام ويقدمه على سواه هو المعتقدات المتعلقة بالخالق سبحانه فهو موجود لا يشرك في عبادته احد.. وهو الحق لا باطل فيه.. والمسلمون وأهل الكتاب مدعوون لقبول الحق الذي هو حكم الإسلام على المعتقدات..

٢ ـ المعتقدون:

أما المعتقدون فهم فريقان:

١ ـ أصحاب المعتقد الحق.

٢ ـ أصحاب المعتقدات الباطلة.

أما أصحاب المعتقد الحق فهم المسلمون وهم نوعان:

١ ـ مسلمون بالمعنى العام.. وهم كل من اتبع نبياً بعثه الله تعالى ولم يكذب بأحد من الأنبياء الذين سمع عنهم.

٢ ـ مسلمون بالمعنى الخاص.. وهم أتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم من كل الجسنيات وكل الاقطار وفي كل الامصار منذ مبعثه والى قيام الساعة، واصحاب المعتقد الحق مأمورون بان يوالي بعضهم بعضاً موالاة كاملة قلبية وعلمية، من أي جنس كانوا وفي أي عصر وجدوا، (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) سورة التوبة الآية٧١. فهم ان اجتمعوا على الحق فموالاة بعضهم لبعض لا تكون الا لنصرة الحق، اي انهم مأمورون بأن لا يتعاونوا على باطل حتى ولو كان ضد عدو لهم.

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعونوا على الاثم والعدوان) سورة المائدة٢.

أما أصحاب المعتقدات الباطلة فهم أهل الشرك والالحاد والكفر بأنبياء الله والتمرد على شرع الله.

وإن موقف الاسلام من هؤلاء المخالفين في عصرنا اختيارُ الموقف المناسب ومعاملتهم بعقلانية شكلية او حقيقية واقعية.

وثار بعض المفكرين الغربيين على العقلانية الشكلية واعتبرها من أسباب المصائب التي حلت بالغرب لأنه لم ينظر الا الى العقلانية الشكلية وهي مخالفة للقيم والاعتبارات الروحية.

* * *

* حركة الاتصال والانفصال للعلاقات الحضارية في العهد الحديث

د.عبد الجليل التميمي
(تونس)

أكد المحاضر «عبد الجليل التميمي» في محاضرته ان نتيجة الدراسات التاريخية الغربية الحديثة التي تناولت طبيعة علاقات أوربا بالاسلام في العصر الحديث قد ساعدت الباحثين العرب على اتخاذ منحى اكثر موضوعية وانصافاً في المعالجات التاريخية، حيث استوحى الكثير لمصلحة مدينته وحضارته الفكرية والتنويرية من مجريات التاريخ الاندلسي والمشرقي، لقد حافظ الغرب على كبريائه ومركزيته، كما حافظ العالم الاسلامي على انطوائه حضارياً وواكب بحثه العلمي النتاج الغربي لمختلف أشكال المعرفة التي تمحورت حول علاقة الاسلام بالغرب خلال مختلف العصور. باعتبار ان الغرب يقف معنا في خط التَّماس الحضاري والسياسي والاقتصادي. ومن ثَمَّ فهم معنيون بقضايانا وحضارتنا أكثر من اهتمامنا نحن بقضاياهم وحضارتهم، وهو ما يبرر العناية المتزايدة وبحوثهم وتعدد مشروعاتهم العلمية التي كانت أحياناً

تحدياً كبيراً لنا.

كان الهدف من محاضرة الدكتور «التميمي» إثارة بعض الجوانب ذات الصلة بالعلاقات الحضارية بين الغرب والاسلام في العهد الحديث، وفي هذا الاطار كان لا بد من تبيان المفاهيم الرئيسة للموضوع. فبالنسبة الى الاطار الزماني وقع الاختيار على الفترة التي تمتد بين أواسط القرن الخامس عشر ونهاية القرن الثامن عشر الميلادي.. ففي عام ١٤٤٥م اخترع «غوتن برغ» المطبعة، ودشن بذلك بداية سرعة جديدة للغرب، وانعكس ذلك على مدى انتشار المعرفة ومختلف المعلومات التي كانت وراء قيام عصر النهضة.. وبذلك تخلص الغرب من أعباء القرون الوسطى..

ويرى المحاضر.. ان العالم العربي مدعو الى تبني استراتيجية من شأنها أن تمنحه القدرة على المعرفة الجديدة.. إذ ما يمكن أن يبنى بالحوار والبحث العلمي الهادىء أهم واقوى بكثير ما قد يقوم على انقاض الصراع والتنافس والتطاحن والشعارات.. مع تأكيد كون ذلك الحوار خالياً من الأفكار السابقة.. وليس ذلك بعيداً على المفكرين الكاديميين، المتمرسين بالنزاهة.. شريطة أن يتم ذلك الحوار بين أطراف متكافئة علمياً ومعرفياً.

ان المستقبل الحضاري للانسانية يجب ان يقوم على كل مكوناتها، وان العالم الاسلامي يجب ان يساهم بفعالية في ذلك المستقبل حتى يقتنع الغرب بأنه ليس مركز الكون، وإنما هو إحدي دوائره.

* * *

* التأثيرات الحضارية الاسلامية على الغرب الأوربي

د.عبد العزيز بن راشد العبيدي
(السعودية)

استهل المحاضر «عبد العزيز العبيدي» حديثه عن مصطلح الحروب الصليبية على الرغم من شيوعه واتفاق المؤرخين المسلمين المتأخرين على استخدامه.. اذ لم يكن معروفاً خلال تلك الفترة التي قامت فيها الحملات من أوربا على العالم الاسلامي.. ولم يطلق عليها هذا الاسم الا بعد قرن ونصف قرن من بدايتها، ففي المصادر الاسلامية عرفت بحركة الفرنج، وعرف القائمون عليها بالفرنج. أما في المصادر اللاتينية فأطلق عليها «حملات» أو «رحلة الى الأرض المقدسة» أو «حرب مقدسة».. وربما سميت برحلة الحج، وسمي المشاركون فيها حجاجاً.. أما الصليبية Grusnde فقد ابتكرت في وقت متأخر جداً.

ومن المهم ان ندرك مغزى هذا المصطلح الذي أطلقه الغرب على هذه الحملة، فعلى الرغم من ارتباطه في أذهان المسلمين بتلك الحملات الحربية العنيفة التي هاجمت العالم الاسلامي، فقتلت وافسدت ودمرت كل شيء، الا انه يعني لدى لغربيين معنى آخر، فهو مصطلح يفهم منه العدل والخير ونبل المقصد، ولهذا نجد الرأي العام الغربي لا يدرك من الحملات الصليبية الا انها حملات خيرة منزهة الغرض تقوم بأهداف نبيلة مثل رعاية المرضى ومساعدة المنكوبين وجمع التبرعات.. وجاءت الاغنيات الشعبية حاملة هذه المعاني، فأصبح الموروث الشعبي المتمثل فيما يُعرف بأغنيات الحروب الصليبية يحمل هذه الصورة البراقة التي ارتسمت في أذهان الناس، واستعيض بها عن المعلومات التاريخية.

اذاً.. لا بدّ من الحذر في استخدام المصطلحات الغربية في التاريخ، لانها حملت معاني لا تنطبق على مفهوم العرب

المسلمين عن الأحداث وطبيعتها.

وانتقل المحاضر «العبيدي» الى الحديث عن اثر الحروب الصليبية في الانسان الأوربي، فحددها بتأثيرات مباشرة في جوانب الحياة المختلفة في الغرب الأوربي، منها:

١ ـ التأثير الديني.
٢ ـ التأثير اللغوي.
٣ ـ التأثير الفكري والعلمي.
٤ـ التأثير الاجتماعي.
٥ ـ التأثير الاقتصادي.
٦ ـ التأثير السياسي.
٧ ـ التأثير الطبي.

وأكّد المحاضر أن هذه التأثيرات الاسلامية في الحياة الأوروبية بجوانبها المختلفة بدت واضحة المعالم وقد جاءت من الشرق.. وقد ادرك الاوربيون حقائقها.. فجاء كثير من الكتابات المنصفة للحضارة العربية وتأثيرها في الحضارة الغربية.

ان اوربا بعد هبوطها المتواتر كانت قد بلغت أعماق الظلام من الجهل والفساد.. بينما كانت مدن العالم العربي (بغداد ـ القاهرة ـ دمشق ـ قرطبة ـ طليطلة) مراكز الحضارة والنشاط الفكري.. ومن ثم بدأت الحياة الجديدة بالظهور وارتقاء الانسان.. واخذت تتحرك على نحو حاضري.

ونلاحظ ان تأثير الحضارة الاسلامية في الغرب الأوربي يمكن رصدها ضمن اربع نقاط رئيسة وهي:

١ ـ يبدو تأثير الشرق الاسلامي في الامور التالية:

أ ـ جاء الصليبيون محاربين ومعادين للمسلمين، وعاشوا بينهم في وضع غير مستقر.. فلم يتح لهم التعلم من المسلمين العرب.

ب ـ ان حضارة الشرق كانت آخذة بالتدهور قبيل الغزو الصليبي في حين كانت حاضرة اوربا متدنية المستوى.. ومن هنا فلا مجال للتفاعل أو التأثر بين الحضارتين

ج ـ معظم المشاركين في الحملات الصليبية كانت لا تعنيهم علوم الشرق.

٢ ـ النقطة الثانية: إن التأثير كان في فئة معينة، فقد استفاد العلماء والمفكرون من احتكاكهم بالمسلمين.. ويمكن حصر الاستفادة في النبلاء والكنسيين.. أما بقية المشاركين وهم الغالبية فلم يكن للحروب الصليبية أي تأثير في مستواهم الحضاري..

٣ ـ النقطة الثالثة: كانت الحروب الصليبية الوسيلة التي فتحت عقول الاوربيين.. وإن كل التطورات الحضارية في جميع المجالات تقود الى تأثير تلك الحملات.

٤ ـ النقطة الرابعة: كانت الحروب الصليبية احد المعابر الحضارية الى اوربا.. اضافة الى قنوات أخرى هي: الأندلس وصقلية وبيزنطة.

فلو نظرنا الى حضارة أوربا لوجدنا فيها أنماطاً عديدة استفاد منها الاوربيون من السملمين في المشرق العربي سواء في مجال اللغة او العلوم المختلفة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية.

ولا ننسى ان الشرق العربي لم يبلغ تأثيره مستوى التأثير القادم من بلاد الاندلس وصقلية، وان التأثير جاء متأخراً، ذلك ان رجالات الحملات الاولى قد صرفهم التعصب عن الاستفادة من التقدم الحضاري السائد في العالم الاسلامي آنذاك، رلا أن الأجيال المتعاقبة بعد ذلك بدأت تتأثر. وشمل هذا التأثير مناحي الحياة، واطلق عليها بعض المؤرخين اسم النهضة الاوربية في القرن الثاني عشر الميلادي.

البقية في العدد القادم

رحلة نقدية
مع شاعر منسي

ممدوح مولود

بقلم:

محمد الزينو السلوم

ممدوح مولود[1] رحمه الله شاعر موهوب، تلمح في شعره مقوّمات الأصالة وعناصرها البيانية، إذ إنه يحمل رسالة هادفة، تُحسُّ به روحاً متسامية، يُغذّيها إيمان عميق بمتابعة الرحلة، ومحاولة مُتجدّدة للتسامي والتجدد بالفكرة والاسلوب «تلمس في صوته نعومة ولطفاً ونبل أخلاق، ولكنك تلمس في أعماق نعومته القوة والعنفوان والرجولة وعزة النفس، تشعر وأنت تقرأ له أن له رأياً واضحاً يدافع عنه بكل وسيلة، كما أنك تلمس طموحاً جامحاً في أكثر ما يكتب».

«نظم الشعر صغيراً، وشعره يتدفّق من نفسه ويتفجّر من أعماق قلبه، اسلوبه بسيط وواضح، يطرح الموضوع ثم يعالجه بصراحة وجرأة، غير مدقق باختيار الكلم أو تنميق التركيب أوتجميل الاسلوب، وكأنه يغرف من بحر، فهو الذي يقول في مقدمة ديوانه الشعري الاول «نذير الأمواج» والذي يضم قصته مع الكآبة حتى عام ١٩٥٦م حيث يقول:

«ان مسوولية الأديب تكبر كلما احتاج الوطن الى الفرد، وكلما ازدادت متطلبات المجتمع..»

كما يقول: «والأدب كالفرد يفقد اهميته كلما توارى وتقوقع في الاطار. الذي فرضته عليه التقاليد والأيام، وكلما تخلّى عن مسؤوليته تخلّى عن ذاته..» ويقول إن حرية الفكر هي وسيلتنا الأخيرة للتحرر...».

وللأمانة يمكن القول ان كل من يطّلع على مقطوعات من شعر هذا الشاعر الذي ولد عام ١٩٣٣ وتوفي عام ١٩٨٥م في مدينة

حلب حيث كان يعمل موظفاً في جامعة حلب في أيامه الأخيرة قبل أن توافيه المنية، أجل إن كل من يقرأ أشعاره يحس أنه شاعر الكآبة حيث صارع الفقر والمرض والعذاب والقهر منذ بداية حياته، ولكنه برغم ذلك لم يدخل اليأس قلبه يوماً بل ظل صامداً في وجه التحديات، فله من رجولته وعزة نفسه وصموده أمام التحديات والنائبات التي ألّمت به بل كان يتحداها ويقف أمامها بالجد أحياناً وبالسخرية منها وتجاوزها أحيانا اخرى.. تتحدّث اليه عن قرب وكأنك امام رجل عركته الحياة، له تجاربه ومنهجه وشخصيته الفذّة، يتحدث إليك بنعومة ولكنه لا يقبل الحلول الوسط أبداً.. شاعر كبير وأديب رقيق».. يحدثك بنعومة في أعماق قلبه تلمس الاصرار والقوة والعنفوان والرجولة وعزة النفس، إنها نفسية الشاعر الأديب الثائر، الحر، المتمرِّد، الفقير..»

وافته المنية عام ١٩٨٥م على إثر شلل أصابه، دخل على اثره مستشفى جامعة حلب، ولم تكتفِ الكآبة ان تلازمه نفسياً فلازمته جسدياً وانتصرت عليه اخيراً..

إنها المأساة الحقيقية التي عاشها شاعرنا بصدق، وإن كل ما أضعه أمام القارىء ليس إلاّ غيضاً من فيض..

لنستمع إليه وهو يقول في هدأة الليل وسكونه:

في سكون الليل يعروني اندلاع
كاندلاعِ النار تسمو في البطاحِ
لم يفتّ الذعر في زندي ولكن
بثّت الإقدام في عزم جراحي

* * *

وفي نظرة التحدي يخاطب أحد زملائه الذي شعر أن الايام قد بدّلته بعد أن كان كشاعرنا ثورة لا تذر وزلزال إصرار..

تغيّرت عما عرفتك يوماً،
تغيّرت في النفس لا في الصورْ
ففي ناظريك وميض الوعود،
وفي نظرتي ثورة لا تذر

* * *

إنه قلعة في صوره وتحديه.. إنه الفدائي المضحّي بحياته وروحه ودمه.. إنه المتمرِّد على التقاليد والعادات.. انه الثائر على الاستعمار بكل أشكاله.. انه الصامد أمام الألم والجراح.. وفي اعتزازه بأمته ووطنه ورفضه الاضطهاد والظلم، يقول مخاطباً أحدهم..

وأنت أدرى بما يعنيه مضطهدٌ
في قلبه حُمم النيران تضطرمُ
ومؤسفٌ أن نرى الإنسان مُفترساً
ونحن من ذا وحوش الغاب نُتّهمُ
إني لمن أمة يزهو الزمان بها
وتزدهي بشذا تاريخها الأممُ

* * *

وعن صموده وجلده في وجه الجراح والآلام.. يأبى الشاعر أن يُساوم.. ويعاهد نفسه أن يظل يقاوم بكل سمو ورفعة..

أسمى وأرفع من كبْر الذرى شممي
فلا يظنّوا أبيع الكبرَ بالندمِ

* * *

لقد شبّه نفسه في احدى قصائده «بكو نتاكنتي» العرب، وفي الحصاد المرّ لنصغي إليه وهو يتأسف..

قد مرّ عام على المأساة وا أسفي
على الحياة التي يغتالها الأسفُ
قد مرّ عام وهذا القلب مضطهد
ووَعُ في كهوف البؤس مُعتكفُ
قد مرّ عام وهذي الروح بائسة
كادت من البؤس والأحزان تأتلفُ
*

إلى أن يقول..
يا شاعراً في صحارى الليل مُغترباً
حتّام عبر الظلام الشعر تغترفُ؟
أما تعبت؟ أما أعييت من تعب؟
ولست إلا الضياع المر تقتطفُ
* *

والواقع إنني أهديت نسخة من هذه القصيدة حينذاك وقد رددت عليه بقصيدة كتبتها أذكر منها..
لله درّك يا أداب من كذب
ودرّ مولود من شعر ومن أدبِ
لله دركما كيف التقت مهج؟
يا للغرابة في اللقيا في النسب
وأنت ياشاعري حاشاك من عتب
مالي إليك وان قصّرت من عتب
تعطي المحبة فيض القلب إن خطرت
ويوم تغضب تُعطي السُوط في الغضب
* * *

إلى أن أقول..
وليتهمْ أدركوا أحلام شاعرهم
أخلاقه اليوم قد تعلو على الرُتبِ
وليتهم أدركوا أخلاق شاعرهم
لأسرعوا ينشدون العفو في الغضب
إن كنت كنتي فكنتنا كان رمز فدىً
يا ليت شعري أكُنتنا صار سيف نبي؟

من يحمل الحق لا تُرجى مودته
وينشر العدل في هذا الزمان أبي
* * *

هذا بالرد على قصيدته المطوّلة التي أسماها «كونتا كنتي العرب» كما ذكرت، أما بخصوص قصيدته «الحصاد المرّ» فقد رددت عليها أيضاً بقصيدة أخرى منها..
نعم لذكراكَ.. عام مرّ مرتحلاً
والذكريات غرت بالحزن تكتنفُ
وبالذكراك.. عام كلّه قرف
كأنه العمر أحنى وجهه القرف
أحببت حياتك يا مولود في شغفٍ
فطالب الحب بالآمال ينشغفُ
إن المصاب اذا تلقاه في رجلٍ
تراه اعند شديد الوقع ينصرف
* * ء

الى أن أقول..
أنت القوي على الأيام في زمن
بات القوي من الآلام يرتشفُ
أنت الأبي وما أعييت من تعب
وإن سُعفت فكم ذا نبّه السعف؟
أيخجل المرء إن يأتيك من كسفٍ
فالشمس رُغم ضياء الكون تنكسف
وللجياد بُرغم السبق كبْوتها
إلا إذا كان فيها الطبع ينحرف
عام مضى كم مضى من قبله سلفٌ
برُغم أمجادنا كم ضيّع السلفُ
يا شاعري وبحق الشعر معذرة
إني كمن راح منك الشعر يستلف
ما العام في عمرنا إن شابهُ كلف
عمر الزمان طويل كلّه كلفُ
عام وتتبعنا الأيام وا أسفي
على الحياة التي يغتالها الأسف

وللحقيقة التي لا بدّ أن أعترف بها، أنني قد أحببته وأحببت فيه صموده وثباته ورفعة نفسه وعزته أمام النائبات وقد كان يلقى مني دائماً التشجيع والرغم وقد أحببت شعره لما يتضمنه من جرأة وصدق وقدرة على التعبير عن ذاته..

وقد يسعفني الوقت لأبعث اليكم ببعض القصائد التي أهديتها له حياً مثل «رسالة مفتوحة الى كونتنا كنتي العرب» التي أشرت إليها من قبل وكذلك قصيدة «نعم لذكراك وهي على نفس القافية لقصيدته الحصاد المرّ» وكذلك على نفس الوزن وعلى ما أذكر أنها كانت مناسبتها «بعد مرور عام على وفاته» وكما أشرت انها كانت رداً على قصيدة أهداها لي في حياته وهي الحصاد المر كما اسلفت..

أعود فأعرّج على شاعرنا ممدوح مولود بعد هذا الاستطراد المحبب كما اعتقد وقد رحل شاعرنا مخلّفاً مأساسة حقيقية طواها النسيان حتى هذه اللحظة، رحم الله شاعرنا الذي لم يصل صدى صوته لأحد بعد أن صمد في وجه التحديات حتى الرمق الاخير برغم أنه من مواليد حلب ومأساته كانت فيها وهي المعروفة على لسانها وأدبائها بتقييم الأدب والأدباء للنهضة الثقافية والفكرية التي تشعُّ منها على طول العصور والزمان والتي خرّجت الكثير من الأدباء وخلّدت ذكراهم باستمرار..

ولنتابع رحلتنا مع المرحوم الشاعر ممدوح مولود فنراه يحب الليل ويحب الصباح.. الليل وسكونه والصباح واشراقته ونسيمه الرقيق..

هويت الصباح ليشرق قلبي
ويسبح طيّ النسيم الرقيقْ
فيملأ أرجاء هذا الوجود
نداءات شعرٍ ندي أنيقْ
وفي الليل إذ يتلاشى الضجيج
ويغرق شارعنا بالسكونْ
تُطل عليه النجوم فتُحيي
الضياء الذي قد خبا في العيونْ

* * *

الليل إذن حيث يتلاشى الضجيج وتُطلُّ النجوم من علياء السماء حيث تُحيي الضياء في العيون والقلوب الظامئة الى الحياة والحب..

لقد خاطب الفقراء والمشردين الخائفين يسألهم أن لا يضعفوا أمام الخوف والعذاب والألم..

أجبني فإني أحبِ اليقينْ
وأهوى الأبي الذي لا يلين

* * *

أما الكآبة التي لازمت شاعرنا طويلاً.. فبعد أن صمد في وجهها طويلاً عاد فتحدّى الفقر والمرض.. حمل مشعل الثورة في قلب ويده ومضى يخترق مأساته بكل رجولة.. حيث نجده يصرخ..

أنا لم تبق لي روح ولا شوقٌ الى العمرِ
ولا قلبٌ به مَيلٌ لهذا الواقع المرِّ
فكم كابدت أشجاناً فكمْ ترعى الدّنا أمري
ولم ترأف بإنسان يُذيب الروح في الشعرِ
ويحيا مرهف الاحساس في دنيا من الضجرِ
سأمضي دافناً قلبي وأبني فوقه قبري

* * *

لقد دفن قلبه.. وبنى فوقه قبره.. وهو الشاعر الذي أذاب روحه في شعره..

باحساسه المرهف في دنياه الصخرية التي لاترحم..

بالله عليكم.. أليس ما قرأتموه «يقف له شعر البدن» وأي إحساس مرهف أعمق من ذلك.. إنه التحدّي على الحياة والموت معاً، رحمك الله يا شاعرنا.. وفي محنةِ الشرق ومنها أمته العربية ووطنه نراه يتحدث وهو العربي الثائر على الظلم والطغيان فقد وقف بكل شجاعة يحارب نفسه ويقسوا عليها..

فلقد أقسمت أن أقسو على
نفسي وأن أظلم حِسّي
ثائراً في محنة الشرق
على الطغيان فيّاض التأسّي
شاعراً بالنكبة الكبرى
وبالآلام في أعماق نفسي

* * *

كان هذا بالطبع أيام الاحتلال.. احتلال المستعمر للوطن العربي وتجزئته في الخمسينيات وحتى أن موجة الاحتلال الاستعماري الاستيطاني امتدت الى الشرق بكامله حيث يعتبرها الشاعر محنة وهي بالفعل محنة، فابتلاء الشعوب بالاستعمار الطامع الى خيرات تلك الدول الصغرى النامية المتخلّفة آنذاك تعتبر محنة كبرى كما يصورها الشاعر وأجمل بها من صورة..

وفي تراتيل في معبد الجمال عنوان قصيدة له يَتغزّل بالسمراء بكل رقة ونعومة فيقول:

سمراء يا أرج الجمال وفجره المتبسّمِ
أنا مذ عشقت الحسن أعبده بصمت تضرّمِ
هو مذهبي وديانتي وعقيدتي وتهيّمي

إنه شاعر بكل ما تعني هذه العبارة.. لا يعرف اليأس الى قلبه طريقاً.. لنراه وهو يتحدّث عن الصمود والجلد عندما تقابله مصيبة أو تحلّ به مشكلة..

صمتي كريم وقلبي روضة فإذا
ما روّعا وطغى في الأرض مُضطهدُ
فالصمتُ جلجةُ والقلبُ مجمرةُ
لا تخبوان وحربُ ساحها الأبد
فالشمس لا تدعُ الألوان مظلمة
إلا ليشرق صبح باسم وغدُ

* * *

إنه يريد ان يقول لا يأس مع الحياة.. فالصمت يجلجل والقلب من جمر، والحرب ساحته الى الأبد.. ومما لا يمكن انكاره أن شاعرنا رحمه الله تأثّر كغيره بشعراء عصره وهذا لا بد من التلويح اليه من قريب او بعيد.. انك تلمس في اسلوب شاعرنا ونفسيته صورة الشاعر «ابو القاسم الشابي» وهو الذي يقول في رثائه..

ما ضاع صوتك في الدنيا ولا اندثرتْ
ذكرى تطوف بأعماق الملايين
أبا الكفاح إرادات الشعوب غدتْ
بوحي شعرك ينبوع القوانين
أنّى نظرت فأمواج وعاصفةٌ
لا تخمدان وإن عاد البراكين
في عمق صوتك صوتي في تمرّده
في رأيه الحر في شتّى الميادين
آمنت بالشعر بركاناً قذائفه
لا تلمس الظلم يوماً بالرياحين
بل بالدماء وبالأرواح ثائرة
وبالجراح وآلاف القرابين

* * *

وينتقل شاعرا الى مدينته التي عاش وترعرع في رحابها حيث يقول في إحدى ذكرياته..

ذكرى مضمّخة بالعطر أحملها
تحت الشّفاف الى عينيك في حلبِ
مهد الرواء لمن يهواهما فإذا
ما رُوّعا فلهيبٌ مائج الغضبِ

* * *

الى ان يقول:

تمشي فتحسبها روحاً لخفتها
حتى اذا انعطفت غابت ولم تغبِ

* * *

ما هذه الروح الشفافة والحساسية المرهفة والخيال الواسع والوصف البديع؟ وهذه الرقة والنعومة الهادئة.. إنها كلماته تنساب برقة ما بعدها رقة كانسياب الماء في ساقية رقراقة في حقل من الخضرة والجمال..

وفي احدى خواطره كما يُسمّيها.. لنستمع اليه حيث يُحلّق الى الذروة ويحتل المكان اللائق به تحت الشمس..

في خاطري..
لم يمّحِ الميس الطري من خاطري
والفتنة السمراء في الخد الأسيل الساحرِ

لا أفتري..
إن صفت إحساسي بهولِ المنظرِ
فتذكّري.. من كان يرمُق سحرك المتفجّرِ
بتشوّق وتحيّرِ..
ذاك النهار وأنتِ في ذاك الرواء الأخضرِ
وتذكّري..
في خاطري..
كاللهفة الغَرقى، كمجد مشرقٍ في أفقِ حرٍ ثائرِ
كالغصّة الظمآى بقلب الشاعر..
أحشى إذا حدّثتُ أن تتكبري...

انظرْ وتأمّلْ ـ بالله عليك ـ هذه اللهفة الغرقى.. والغصّة الظمآى.. بقلب الشاعر.. إنه الإحساس المرهف والخيال الواسع والوصف البديع والرقة الناعمة الهادئة، والعشق الصادق.. إنه الشاعر الذي سيّس الكلمة وسخرّها لتصوير ذاته مشاعره وأحاسيسه بلا شك فلا أبدع ولا أروع ولا أظنني مبالغاً آذا قلت....

والحرب. لقد شارك الشاعر في حرب حزيران ١٩٦٧.. انظر اليه في تصوير المعركة.. الى العيون التي تحدّق بالافق عبر الظلام الدامس، وكيف عبر شاعرنا هذا الظلام..

الى موعد للعُلى..
وإذا لفّنا الليل كُنّا عيوناً
تحدّق في الأفق المُعتمِ
وقد ساد في الكون صمت
رهيبٌ ونحن بخندقنا المظلمِ
عبرنا الظلام صدوراً ظماءاً
الى موعد للعلى مُبرَمِ
فدى كل قلب طروب يغنّي
على شفة حلوة المبسمِ

* * *

اقتحم شاعرنا الأعداء.. وقاتل مع رفاقه الابطال جنباً الى جنب ولكنه جرح وأسعف الى المستشفى، وحتى وهو في مرحلة العلاج.. وهو في السرير يمثُل الى الشفاء نجده يصرخ..

مُقامي هنا فوق هذا السرير
طوال الليالي الأمر مُثيرْ؟
أيسجن قلب غنيّ الشعور
ويرسف في القيد مثل الأسير؟
وفي كل نظرة عينٌ تحدٌ
وفي كل نبرة صوت هديرْ
أزيحوا ضماداتنا الناعمات فأخرى بنا
معمعان السعيرْ.

* * *

إنها الرجولة بحد ذاتها في أجمل صورها.. إنه التحدي للمستشفى والسرير والجراح.. إنه الثورة بحد ذاتها..

وفي مُقارعة المستعمر قبل الاستقلال ايضاً في وطنه سوريا وعمره بعمر الورود يُعتقل والده من قبل المستعمر ويرسف تحت نير العذاب.. نراه يخاطب المستعمر بقوله..

دم والدي أنقي وأشرف منك يا مُستعبدي
أتظنني طفلاً أروّعُ من نذير توعّدي
وأهاب أعماق السجون إذا نبابي مرقدي
أنا لم أهنْ يا أيها الباغي اللدود المعتدي
لكنني مهما يطل يومي.. فإني لي غدي

* * *

أظنهمْ هدّدوهُ بالسجن وهو لا زال طفلاً بعد اعتقال والده فوقف يصرخ في وجههم أنه لا يهاجم ولا يخاف أذاهم ويتوعدهم في غده المشرق..

انه ثورة عاصفة وغضب لا يخمد.. إنه صراخ الانسانية الدائم.. مشعل الحرية المتوقّد.. إنه العواصف المتمردة.. إنه الفدائي الذي لا تنام له عين.. لنُصغي إليه..

أنا من أنا؟ أتظلّ تجهل من أنا؟
أنا لست لُغزاً مبهماً عبر الدّنا
أو صرخة بلهاء يعروها الونى

* * *

أنا ذلك الغضب الذي لا يُخمدُ..
أنا مشعل الحرية المتوقّدُ
أتظنُّ عيني في الدياجي ترقد؟
وتُداس لي حرية وتُبدّد؟

* * *

أتظنني حبّاً أباد وأوأدُ؟
أنس وكيف ونقمتي لا تبرد
وصراخ إنسانيتي يتجدّد..
وعواصفُ مكبوتةٌ تتمرّدُ
أنا من أنا لو كان يصفو المورد
قلب فدائيُّ الدّماء مجنّدُ

* * *

وقبل نهاية المطاف مع شاعرنا ـ رحمه الله ـ لنستمع اليه في قمة ثورته بعد أن أثقلت كاهله الأيام وتوالت عليه المصائب..

يا للفدائي كم ذا جاد تضحية
وكم بروح مضى يسقي الندى ودمٍ
يطوي الجراح ولا .. لا يشتكي أبداً
كأنه قلعة، أقوى من الألمِ

* * *

انه قلعة بالفعل في صموده وتحدّيه.. انه الفدائي الذي يُضحّي بحياته وروحه ودمه.. انه الثائر على التقاليد والعادات.. انه العبد الفقيد الصامد..

وجدير بنا أن نختم جولتنا الطويلة مع الشاعر.. فاذا استطاع المرض أن يسيطر على جمسه كما ذكرت لم يستطع أن ينتصر على روحه ومشاعره وأحاسيسه ونلمس ذلك في شعره الحي الذي يعيش

في الأفكار والصدور..

لنستمع إليه وهو يقول بعد مقابلة أحدهم بطابع السخرية والفخر وعزة النفس..

بلى كل ما قد قلت حكمُ..
فلتنتحرْ كلّها ولتسقط الكلمُ
إني لأصغي فزدني حكمة وهدىً
فانني منصتٌ بالصمت معتصمُ
إني لمن أمه يزهو الزمان بها
وتزدهي بشذا تاريخها الأممُ
وأنت أدرى بما يعينه مضطهدٌ
في قلبه حمم النيران تضطرم
ومؤسفٌ أن نرى الانسان مفترساً
ونحن من ذا وحوش الغاب نتّهمُ

* * *

ولقد تقصدت التكرار هنا كي أأكد على صاحبنا شاعر وناقد ومصوّر لذاته ولمن حوله يؤثر ويتأثر بنفسه وبمن حوله..

رحل شاعرنا وله مجموعة شعرية واحدة تذروها الرياح برغم انها كانت طبعة قديمة جدا، طبعت على ايدي من لا يقدّر قيمة الادب والشعر، وقد نعذره لهذه الطبعة الرخيصة بسبب فقره وضعفه وكيف لا؟ ونحن حتى هذه اللحظة غير قادرين على طباعة اي مخطوط الا بصعوبة بسبب تكلفته الغالية والظروف المادية التي نعيشها..

أجل رحل شاعرنا ولم يسمع صوته احد مثل الكثير من الادباء والشعراء والابطال «الجنود المجهولون» في حياة الشعوب.. وليعذرني القارىء في هذه الرحلة التي قد تكون طالت قليلاً ولكنها بالله عليكم ألا تستحق مثل هذا الجهد والعناء والاطالة لأنها رحلة مع شاعر ثوري تحدى الظلم والقهر والمرض والفقر.. رحلة مع شاعر أخاف أن تنطمس ذكراه، وتضيع أعماله، ويُنسى الى الأبد.. وأعتقد أنها أمانة في أعناقنا جميعاً مدراء تحرير وكتاباً ونقاداً وقراءاً ان لا نُبرز امثال شاعرنا رحمه الله، ولعله يأتي من بعده من يتذكرنا نحن الفقراء الى الله والله من وراء القصيد.

* * *

---

(١) ممدوح مولود: شاعر ولد وعاش وتوفي في مدينة حلب ١٩٢٣-١٩٨٥م عاش كئيبا لازمه الفقر طيلة حياته، ومع ذلك لم يدخل اليأس قلبه يوماً، وظل يناضل طيلة حياته حتى اللحظة الأخيرة، عاش القهر والحرمان وخاصة في آخر حياته في المرحلة التي كان فيها موظفاً في كلية الاداب بحلب حيث مورس عليه القهر النفسي من قبل عميد الكلية آنذاك لا لشيء إلا لأنه شاعر يكتب بجرأة وصدق ـ أليس هذا بغريب؟ وهو يعيش في كلية تخرّج الأدباء ، وقد تُوفي نتيجة عملية جراحية أجراها، وترك ذكرى طوتها الأيام واندثرت مع النسيان وما دفعني الى أن أكتب عنه باعتباري تعرفت عليه في تلك الجامعة ووقفت الى جانبه. فقد كنت أعمل فيها رئيساً لقسم التدريب العسكري بصفتي كنت حينئذٍ ضابطاً في الجيش العربي السوري.

ابتسام الصمادي

وتألق الصوت الآخر

بقلم:
محمد غازي التدمري

من ينعم النظر في ما يطرحه الشارع الابداعي من نتاجات مختلفة يُلاحظ ان الصوت النسائي الذي كان حبيس الجدران، بدأ يمزق أحجبة الصمت، وينطلق الى الساحة الابداعية بأجنحة قوية قادرة على الطيران والتحليق في فضاءات الإبداع بكل ثقة ووضوح، وان دلّ هذا شيء ما، فإنه يدل على مصداقية الصوت الابداعي النسائي الذي بدأ صوته يرتفع مُعلناً حضوره الطبيعي في الساحة الإبداعية المعاصرة، عن طريق النص الذي يفرض نفسه بعيداً عن المكياجات والأصبغة والألوان البرّاقة التي من الممكن ان تشير الى امرأة فاتنة، ولكن من العصب جداً ان تدل على شاعرة مبدعة، لأن الإبداع أول ما يرتبط بقدرة المبدعة على تجاوز الشكليات المظهرية من اجل حضور ابداعي خاص، لا يغيب قبل ان يخلّف بصمة ما، تُشير الى وجود المبدعة ككيان وصوت ونص قادر على التجاوز ، يملك ما يؤهله لأن يستقرّ في الذاكرة والى زمن طويل.

من هذا الوعي لحركة المرأة المبدعة في الشارع الثقافي، تحاول الشاعرة (ابتسام الصمادي) ان تُرسي دعائم تجربتها الشعرية على أساس ، ان الإبداع الحقيقي نصٌ يملك سمة الحداثة والمعاصرة دون ان يعادي الاصالة، فهي في نصوصها في حالة صلح ومصالحة مع الحداثة والأصالة، ليس توفيقياً او توليفياً وإنما من خلال وعي حضاري لحركة القصيدة الحديثة التي تعيش بين صراع المسارين، وممّا أهلها لأن تنجح في هذا المسار تجربتها الصادقة في محاولة ملامسة هموم المرأة من قريب، ضمن إطار فني

يسعى إلى تكاملية النص الشعري، الذي ينشر قلاعه في فضاء القصيدة المتطوّرة، التي لا تقف عند حدود الشكليات ولا تتقوقع في قمقم الحداثة المغلقة، وإنما تحاول ان تُخضع الانساق جميعها في اطار الوجد الانساني العام الذي من الممكن ان يكون بكل بساطة وجد المرأة العربية عامة:

«وخذ الليالي والتعاقب والنهار
واترك لحلم العين أن يرد السّهر
أدري .. فوجدك نبعة تروي المقل
وخذ الغيوم، خذ السماء، خذ السّحر
واترك لشوقي فسحةً
تلقاه إن عزّ المطر»

إنّ فعل الأمر الذي تكرر خمس مرات ليُعطي الاخر انساق (الليالي، والتعاقب، والانهار، والغيوم، والسماء والسحر) من أجل أن يترك لها (الحلم، والشعر) إنما يحاول أن يكشف أبعاد مكابدة الوجد الذي حمل سرّ التلاقي بين الضدّين وهما يرتقيان صحوة الشعر الذي من الممكن أن يحمل الجنون الذي يكشف سرّ المعاناة المترامية على أنساق اللغة الشاعرة التي ترق حتى تشف وتشف حتى تُظهر ما وراءها من أنساق الأسى الذي يذوب في حرقة الدمع الهتون:

«ولك المساكبُ ما حوت
ـ وعلى يمينك واليسار ـ
وردٌ ونفحٌ وافترار
أمّا أنا فالشوق لي
بعبور بواباته الكبرى
يترقّبِ الخطو..
بحمّى الانتظار»

هذا الانتظار المصلوب على أروقة الوجد، يفتح أبواب الحب المغلقة، لينطلق في فضاء النقاء الإنساني:

افتح ذراع الحب لا تخشى بشر
لن ينقص الإحساس من كبْرٍ قدر
فأنا أحبّك فوق ما يعلو الكبر
فوق ما يغرق الأيام من حلْو العبر
لا أخشى لائمة القبائل
من ربيعة أو مضر

* * *

وما دامت تحمل في أعماقها هذا الاصرار على التحدي والوقوف بوجه المجتمع بعاداته وتقاليده وطقوسه القبلية والعشائرية فمن حقها ان تُعلن رفضها بوحاً مرتفع النبرة، ينهض على أنساق خطاب نصائحي لا يخلو من حذرٍ وتحدٍ

«أرجوك.. أرجوك
ابق على مسافةٍ من عشب أعصابي
مزنّرٌ بخصري.. بشقائق النعمان
مطوّقٌ سفحي.. بمواسم الرّمان
لا تبتعد أو تقترب
فعشقيَ النادي الاخضر المغرور
يغلّ في مشاعري لأعمق الجذور
قد يقطع الخطوط
قد ينسف الجسور
ابق على مسافة
أشجاره ملغومةٌ بحلاوة التعبير
منطقةٌ محظورة.. ممنوعة التصوير
أسلاكه بريّة، عليّقةٌ وتوت
كم مرّة نَصَحتُك، كم مرة أقنعتك
ألاّ تنام صاخباً في قلبي الموقوت».

إن البوح الإنسيابي المتناغم مع ياء المتكلم المرتفعة النبرة وهاء الغائب التي تحدد أنساق الخطورة وكاف الخطاب التي حملت مرامي التحذير، تشكل مع أنساقها المتعددة ملامح واضحة لما يتفاعل في أعماق المرأة المتمردة التي لا تقبل أنصاف الحلول، ولا تسعى الى الوقوف في

منتصف الطرق لانها تملك في أعماقها حسّ المرأة الحضارية التي تعرف كيف تقيم علاقاتها الانسانية في واقع تشابكت خيوطه وتشاكلت أبعاده.

هذا الصوت الحضاري سرعان ما ينقلب الى سيف مسلط على سلبيات المرأة ذات الاصباغ التي سرعان ما تذوب بفعل أول قطرة عرق:

«ذهبت تتبضّعْ.. تتفرّجْ
في سوق يُعرف بالكلمة
أحمر أخضر أبيض أسود
وبضاعة فكرٍ أو ألم
وعصارة ذهنٍ أو قلم
أو صفّ كلام أو أجود
الكل: هلمّي سيدتي
فاتنة الزينة وغنيّه
باهرة المظهر وقويّة
تبدو كالتحفة أثريّة»

وبالتالي فإن المرأة في ديوانها «هي وأنا وشؤون أُخر) غالباً ما تراها في كل مكان.. في الزمن.. في حفل تعارف .. في صالون الأدب في المطبخ:

«في المطبخ تحيا وتموت
كالنحلة دائمة الدوران
وتقطّع بصلاً وخضاراً
أو تعصر حبات الزمان»

وبالتالي تراها صوتاً مرتفعاً، تشغله اللغة الحادة وهي تردّ على مَن يساوم على قضيتها من أجل اتفاقيات سلام غير عادلة أو شريفة:

«تنهّدنا الدّرب حتى المدى
وأغلق فينا سجل الأماني
وصرْنا الصدى
فيا جرح
إنّ حدودك بعض اغترابي
فكيف غدوت نزيف سواي
وكنا سويّاً نهاطل وجداً
وننقش عشقاً بجذع الشجر
نطارد طيفاً
نخبّىء حظّاً بجوف الخيام
وعند الفجر نحاكي جنون الرياح الحبيسة
توق النسور لحضن القميم
فكيف تصير غريباً بعيداً
وتطفو كقشٍ بنهر الزمن
كذا ينتهي يا صديقُ .. الوطن..؟!»

إن صوت الأنثى المعبر عن وجد المرأة المعاصر، وارتباطها بمعاناة الوطن والإنسان، ينهض معياراً تقنياً في تجارب الشاعرة (ابتسام الصمادي) التي حملت خصوصيتها الى الشعر دون مكياج وبالتالي حملت الشعر الى أعماق المرأة المعاصرة، فلامس عقلها وداعب وجدانها دون يخدش حياءها، أو يتلاعب بمشاعرها الإنسانية، من خلال بوح إنساني لم يسع الى أشكالٍ تزينية تُعمّر الألفاظ المرصوفة بعناية خاصة على أنساق معانٍ وصفيّةٍ أو صور مرئيةٍ أو إيحائية لا هدف لها أكثر من إثارة دهشة مفتعلة لا تدوم كثيراً، وإنما سعت الى تفاعل الاقانيم الفنية من خلال تناغم حقيقي بين صوت المرأة والواقع المعيشي لتدعم موقفها وتشير الى وجودها، وتدلّ على قميها، من خلال نصوصٍ شعرية واعية لدور المرأة في المجتمع، وبالتالي حملت ما يؤهل الشعرية على استنهاض الواقع بغية تحديد أبعاد الصوت الأنثوي القادر على فهم اللغة الشعرية من حيث انها نظام ثقافي، يؤدي وظيفة ما.

وقد نجحت الشاعرة «ابتسام الصمادي» في تحقيق معادلات الفن والواقع والإحساس بالآخر، ضمن بوح شعري حمل مشروعه مصداقية النقل وأمانة الدلالة من خلال انسجام صادق وواعٍ مع الواقع والمرأة والحياة..

* * *

في رحاب الأدب السعودي

بقلم:
تميم الحكيم

الأستاذ محمد عمر عرفة شخصية فكرية وأدبية سعودية لها آراء قيّمة وعطاء متميّز..

ولقد استطاع أن يؤكّد حضوراً فاعلاً من خلال تقلّده رئاسة (نادي تبوك الأدبي) قبل ثلاث سنوات..

وللأستاذ عرفة رؤية خاصة في زملائه من المفكرين والأدباء ورؤساء الأندية الأدبية وذلك ما نستشرفه من خلال تعريفه القيّم التالي لهم:

*** الأمير خالد الفيصل**

تجلى في رؤس الأشجار بمنطقة عسير، ولحن حب فوق هضابها، ودرع واقٍ لوطنه، وسيف بتار فوق طويق. وآجا، وسلمى تعبير صادق صدق واقع المنطقة. وحضور متو اجد لشتى المجالات، نفس أبية، وبسمة عريضة. وزكاوة في النفس، وعذوبة في الكلمة. محبة للكبار، ورفق بالصغار جعل من عسير منطقة السياحة الأولى في المملكة، أعمال خيرة، وأقلام ترعف بعبارات شعر رائع. هذا هو حفيد صقر الجزيرة (خالد الفيصل).

*** محمد حسن عواد**

مازالت قصائد الوطن ولحن الوطن وكلمات الوفاء عالقة بأذهان الجيل موروث كبير جيل بعد جيل علقت بأذهان الجيل فلا زلت من الرواد الأوائل الذين أسسوا للحركة الثقافية صروحا في مملكتنا الحبيبة. فشكراً لك من أحبة يكنوا لك الوفاء كل الوفاء، وشكراً لك من مملكتنا الحبيبة على ما أعطيت وأوفيت للثقافة فنها.

*** الدكتور راشد الراجح**

تواصل مستمر ودائم مع الفكر والثقافة أينما كانت في الشمال، في

الجنوب، في الشرق أو في الغرب. في الرياض منطقة العلم والأدب والثقافة، رجل قيم على قدر من الخلق. صدق في الكلمة، ودور فعال في تنمية الحركة العلمية والأدبية في المملكة، حبه لوطنه وحسن عطائه في عمله جعل من طلابه بالكلية والجامعة عقداً حوله متى ما وجدوه. له تميز يميزه عن بقية الباقين فلك التحية من الشيب والشباب وكثر الله أمثالكم.

*** الدكتور محمد العيد الخطراوي**

ابن بار للمدينة المنورة ذو رأي سديد ورسائل نقدية حادة دون هواده إذا حل في مكان لا يلوذ إلى الصمت فهو ذو بديهة وصاحب نكتة يحبه الشباب في شتى أنحاء المملكة لصراحته، وعذوبة كلمته. نود منه العود على البدء من خلال (نافذة على الفكر والثقافة) بصورة جديدة. وفقه الله وأكثر من أمثاله.

*** حجاب الحازمي**

روحانية متنقلة. وروح شفافة. كريم في خلقه. كريم في حديثه. صاحب العبارة البراقة. حمامة مسجد بحق. إلى جانب أنه وعاء للثقافة والمعرفة. استطاع أن يجعل من جازان في ناديها بوتقة للأدباء والشعراء الذين عرفناهم من خلال نادي جازان. الدفء في أدبه كدفء جازان.

*** رشيد فهد العمرو**

شخصية جذابة. ابتسامة لا تفارق الشفة. يكره التكبر. يتحدث كأنه يقول شعراً. من مزاياه توزيع حديثه على المجلس لا ينفرد بشخص معين. هو لطيف العبارات كأنه يهمس في رقة واضحة.

*** سعد عبد الله المليص**

سجل حافل بالعطاء فوق جبال الباحة دونما برودة فهو أستاذ الأجيال. جم التواضع. كريم في عطائه الذي ينم عن أصالة وطيب معدن. رحابة صدر وحسن معشر. ثقافة واسعة مع دراية وهمة عالية. الله نسأل له الصحة والعافية والعمر المديد مع المحبة والشكر

*** علي حسن العبادي**

يتفيء خيمة النابغة الذبياني. قلمه يصر نتيجة إصراره فيما ينويه وما يفعله بمهارة فائقة كأنه جراح ماهر. في حديثه لبق سهل مجامل. أما قلمه فلا يعرف إلا الجد والصرامة فهو كالسيل الجارف. يجيد الحكم ويحسن الاختيار. أما أبا خالد في مجلسه فهو حلو كعنب الطائف وشهدها. كثر الله من أمثاله وأطال في عمره ليبقى ذخراً للكلمة.

*** سعد البواردي**

أيها الحامل أعباء الحنين
كم تغنينا وتشدو بالأنين
أين ذاك الصوت إنا في
ندى عزفك نسعى لاهثين
وتناجيك أهازيجك أم
ألهاك تيار السنين

*** عبد الله بن ادريس**

هاجسه الأمة ومحبوبته نجد. غنى للأمة في نجد، وناجى نجد في الأمة. وتتبع القائلين في نجد يجمع لهم ويعرف بهم. ونحن اليوم نهتف به قائلون: زدنا فإنما يجمعنا معك حبك الراقي.

*** محمد عبد الله الحميد**

صاحب الكلمة المتزنة. عذب الأسلوب. تجده دوماً يتروى العبارة

والكلمة. يعطي من خلال المنطق الشيق ما يبهج الصدور. عباراته دوماً ذات معنى كيفما جاءت. لا يتسرع في الإجابة. حضرته في اجتماعات الأندية الأدبية فلمست فيه الصفات الحميدة والدفاع عن صروح الثقافة. ومحاولة الصعود بها وتطويرها. الله أسأل أن يوفقه ويأخذ بيده لما فيه صالح مملكتنا ومجتمعنا.

*** سعيد عطية أبو عالي**

كنت أسمع كثيراً عن هذه الشخصية، وكنت تواقاً لرؤيته لكي أتمحص فيه ما سمعته عنه. فإذا به كباره وإذا بالرؤيا ليست كالخبر. وجدته محلقاً في أدبه وعباراته وثقافته، ولفت نظري فيه سعه الأفق وتنوع المدارك ورزانة الأسلوب فهنيئاً لهذا الرجل العصامي، وهنيئاً لنا به.

*** عبد الرحمن العبيد**

رجل عذب الأسلوب. راوية بصدق. ديدنه الوفاء وهاجسه العقيدة إمتلأ بها صدره فأصبحت سمته في أدبه. تتحدث معه تجد السلاسة في كلامه، وكلما تعمقت معه كلما تجدد هذا الرجل فهو من يعطي السهل الممتنع.

*** عبد الفتاح أبو مدين**

شخصية متجددة فهو الشيخ العامل بما يرضي الله وصاحب الكلمة والحرف لا يخرج عن دائرة التقوى. وفي ميدان الشباب لا يمل من يعاشره مجلسه فقد جعل لهم منه نصيباً ينهلون منه فهو الجديد العتيق. ولقد قالوا أبو مدين لسان الأندية الأدبية فنحن نوكل إليك الأمر فأنت ممن يمتلكون الخبرة على صياغة المستقبل.

*** محمد هاشم رشيد**

اسم على مسمى. محمود في سيرته، رشيد في سريرته. فهو رجل نبيل نفتخر به في المنتديات الأدبية. فما أروعه شاعراً، وما أجله مثقفاً وراعياً لصرح من صروح الكلمة في نادي المدينة المنورة. نهلنا منه عطاء الشباب ونود أن ننهل منه عطاء الشيوخ.

*** الشيخ عبد العزيز المسند**

صاحب الكلمة التي احتلت القلوب، والصراحة والصدق في القول. صاحب الفتوى فيما شرع الله، وله نصيب وافر في تمكين الوثاق في الحياة الأسرية. فاثاره مازالت باقية في مجتمعنا المسلم في المملكة وخارجها. ومع هذا العلم فقد جمع دماثة ودعابة تأسر الفؤاد والالباب. فشكراً لك من الأعماق.

*** حمد القاضي**

صاحب التطواف على بساط الريح ولنا أمل أن يجوب هذا البساط جميع أنحاء المملكة، ولكم نتمنى أن نراه في ثغر الشمال تبوك يحلق في سماء الكلمة والابداع. فهو من صناع الكلمة وأصحاب القلم، والقادر على أن يمس مواطن الابداع لدى الشباب في الشمال. وما أملنا هذا إلا عن ثقة في رجل له الباع في مثل هذا المجال. فشكراً له على تجلياته الممتعة.

*** عزيز ضياء**

علم كالذهب. كل ما قَدُمَ غلا. أنت أيها الضياء المتجدد بوهجك القديم عبر زهراتك اللواتي نقتطفها من الرياض، ترسم لنا لوحات اللقاءات الأدبية بين الأصدقاء. فللأمام أعانك الله.

* * *

حامد حسن

رسالة

نسـرٌ.. وحطّمتِ الرّياحُ جناحي
من يمسحنَّ على نزيف جراحي؟

لم يبقَ بعد رحيلها - في مخدعي
غيرَ الأسى، والشّعر، والمصباح

واللّيلُ - هذا الوحش - متكئٌ على
بابي، وطائفةٌ من الأشباح!!

لا توقظوا روحي إذا انبلج الضّحى
هذا صباح الناس، أين صباحي؟؟

يا طيفُ، أنت رسالة الشوق التي
بعثَتْ بها من عالم الأرواح!!

لغة القلوب إذا تعذّر فهمها
فوجيبها يُغني عن الإيضاح

لا يحبسُ الغرِّيد نغمتَه إذا
هزَّ النسيمُ معاطفَ الأدواحِ

عطرت أجفاني فلو مسحت يدي
عيني تخضب مقلتاي وراحي

لي منك أشواق العُماة إلى السّنا
وحنين قلب الخمر للأقداح

وأنا الأسير، وهل هناك وسيلةٌ
كي يطلق القدرُ الرَّحيم سراحي؟

أوصدتُ قلبي دون أيٍّ غويّة
منهنَّ طيِّعة العناق رداح

أوصدتُه.. فطَرقْن كلَّ منجِّم
يسألنه عبثاً عن المفتاح

وعتبْن، والعتبُ الخجول محبَّبُ
فعتابُهن عباهرٌ وأقاحي!

يا طيفُ أسلمك الشّراع قيادهُ
من بعد ما تعبت يدُ الملاّح

إن قيل: يمحونا الزَّمان غداً، فلا
نخشى غداً، كذب الزّمان الماحي!!

إن متُّ بعد غدٍ سأُبْعَثُ شهقةً
في ناي كلِّ مغرّدٍ صدّاحِ

في ذكرى العلامة الكبير الشيخ

يونس حسن رمضان

يا أيهـا النور الذي لا يغـربُ! ذكـراكَ طيّبـةٌ، وأنتَ الأطيبُ
ذكـراك في قلبي وقـد عَـبَقَتْ به تُبـدي عن الوجـد الدَّفين وتُعْـرِبُ
ياباعث الجيل الجديد بنهضـةٍ فـيهـا سناكَ على الدُّجى يتغلَّبُ!
بمناهجٍ علمـيّـةٍ ومـخـابرٍ عـصريَّةٍ، وتجـاربٍ تستـقطبُ
قـد أشـرقت فـيهـا أدلّتك التّي ظلّت بأقـلام المعـارف تكتبُ
فـيهـا من الإحـيـاء والتّحـديث مـا أضـحت به أضـواءُ فكركَ تسكبُ
ها قـد غـدت أضواءُ فكرك مـورداً للواردين مـعـينُه لا ينضبُ
أضواءُ فكرك قد أزالت غـيـهـباً مـتـوثّبـاً في مـحنةٍ تتـوثّبُ
لّما أتـيتَ الـى الـورى جنحَ الـدُّجى بكواكب الإرشـاد زال الغـيـهب
وتمـزَّقـت أثـوابـهُ بـين الـورى وتحـقَّـقت لهم المُنى تتـحـبَّبُ
في خطَّةٍ تنحـو بأرباب النُّهى نحو الحـقيـقة، والحـقيـقةُ مطلبُ
أفـلاكـهـا تبدو بأروقـة السَّنى وبزورق الملاّح دومـاً تـركبُ
تدعـو لوحـدةِ أمّـةٍ سـارت على نـهج الهـداية، وهو نـهجٌ طَيّبُ
أرسى قـواعـده على أسس التُـقى إنَّ التّـقيَّ هو الرَّبيعُ المُخـصبُ
تحـكي ظواهره بـواطن سِـرّه في وحـدة اللُّقـيـا، وهذا مكسَبُ

مـا أبصـرتْ عـينايَ منحى سـيـره   إلاّ بدا بدرٌ، وأسـفـر كـوكبُ
وإِذا ببند العِـزّ يسـتـولي على   أمَـد العـلا، وهو المحلُّ الأرحبُ
ولأنتَ أولى من سـواكَ بمجـدهِ   يا أيُّهـا القطبُ العظيمُ المُنجبُ!
يسـمـو بك المجـدُ العظيمُ بطلعةٍ   تهبُ الخلود وإِنَّهـا لا تُوهَبُ
أَثْرَت وضـاءتهـا على حـقب الدُّنى   هذي الحـيـاةُ لأنَّهـا لا تغـربُ
هيـهـات تغربُ شـمـسـهـا وكـيـانهـا   أزل تأزلَ فـضلُه لا يغـرِبُ
لّما طلعت لدى الغـمـيم تطلّعت   عينُ الغـمـيم، لأنهَـا تترقَّبُ
وهفـا إِليـه مـحـمَّـدٌ في قُـدسِـه   جـذلان بالعلم الكبـيـر يُرحّبُ
أحـيـيتَ سنَّتـه وقـمت بنهـضـةٍ   بالغـار مـفـرقُ تاجـهـا يتطيّبُ
إِذ أنَّ سنَّةَ أحـمـدٍ بين الورى   صـوبٌ يفـيضُ وعـارضٌ يتـحلّبُ
من رامـهـا فـغـديرها مـتـسلسلُ   عـذبُ المواردِ مـسـتطابٌ أشنَبُ
أضـفى عليـه أحـمـدٌ من نطقِـه   ريَّا بلاغـتــه وأحـمـد يخطبُ
ولقـد حـبـاك ضـيـاءُه ولطالما   حـيَّـاك في شـوقٍ وحـيَّت يثـربُ
مـالـت إِليك لِما رأت من شـعلةٍ   وضّـاء يخـفى في سناها الكوكبُ
لّما قـضـيت هفـا الشُّـعورُ المصطفى   فـمـصـدّقٌ أمـر الرّدى ومكذّبُ
قـد كنتَ تحـملُ للتـقـدُّم قُـوته   من قلبك الحيّ الذي يتـحـبَّبُ
ويطلُّ فـجـرك حـامـلاً بين الورى   زَهْوَ النُّسـور ، وظلَّ فـجـرك يخـصبُ
حـتى اذا أزف العُـبـور وأجـفلتْ   هذي الجـمـوع، ومـا عَـرَاهم يصـعبُ
هذي عـيـونهم تفـيضُ دمـوعُـهـا   وصـدورهم فـيـهـا اللّظى يتـوثّبُ
قـد عُـذِّبوا لّما نأيتَ وحـالُهمْ   كـتـبتْ ببلواها عـبـارة عُـذّبوا
إِذ أنَّهـم كـانوا لديكَ براحـةٍ   كـبرى ورحت عن الحـمى فـتـغـرَّبوا

تفنيهمُ الزَّفراتُ في لهواتهم والنّارُ في أحشائهم تتأشَّبُ
ولطالما نبذوا الكرى فجفونُهم ترعى النّجوم، وبالمدامع تسكبُ
لم يعرفوا طعم الرّقادِ لأنهم عرفوا بأنك عن حِماك مُغيَّبُ
لّما ثويت لدى التّراب طرحتهم في حسرةٍ تَبري، وحزنٍ ينهبُ
وتركت أطفالاً صغاراً بينهم ما راقهم من بعد شربك مشربُ
كانوا بأحضان الحنان يضمُّهم نادٍ، ويجمعهم هنالك ملعبُ
واذا رحلت فليس فيهم يافعٌ يلهو، وليس لديهم من يلعبُ
ما فيهمُ من فاقدٍ إلاّ أتى متسائلاً بصراخِهِ: أين الأبُ؟
أين الذّي غمرَ الجميع بحبِّه؟ أين الغمامُ المستفيضُ الصَّيّبُ؟
وهو الإمامُ اللّوذعيُّ المرتجى أمجادُه فوق المجرَّة تُطلَبُ
ناداه وهجُ الوعي دامَ دوامُه أضحت بذكراكَ المآثر تُكتَبُ
تحيا مع اللّه العظيم وهذه جنّاتُ عَدْنٍ بالهوى تتطرَّبُ

بين فلسفتين

يا نواعـــيـــر هدهدينا غناءَ   وافسـفحينا على المدى أصداءَ
جرح الشجو سمعنا فغدونا   نحسبُ الشّجوَ في صداكِ غناءَ
قد فقهنا الغناء تسكبه الأصداءُ   وجداً وما فقهنا البكاءَ؟!
أيَّ سرٍّ في نوح شجوكِ تحكينَ   .. ومعنىً حكيتِه إخفاءَ؟!
أيَّ صوتٍ توشوشينَ ترامى   في متاهاتنا وغُمَّ عياءَ؟!
أيَّ أحجيّةٍ تُبارينَ فيها   فقهاءَ الألبابِ والأذكياءَ؟!
يا نواعيرُ أنتِ ما نُحتِ سِرٌّ   عزَّ فحواه أن يحدَّ جلاءَ؟!
أيبوحُ الشّجيُّ فيما يُعاني   من شجونٍ، وقد غفا إغماءَ؟!
هل تغنّينَ للخليّ ابتهاجاً   أم تنوحينَ للشجيّ عزاءَ؟!
فيم هذا العياءُ؟! فيمَ زفيرُ   .. الشّجو يحكي ما حيَّرَ الحكماءَ؟!

يا نواعيرُ أيُّ سرٌّ تصابى   فيكِ منّا فهاجنا أشذاء
وتهادى في قاحل النّور يحكي   عطرنا فاضحاً بنا الأجواءَ
يا نواعيرُ هدهدينا طيوفاً   هائماتٍ، وشاطرينا السَّناء
وأزيحي عن طيفنا كلَّ ليلٍ   وذرينا مع الرؤى نُدماء
واحرقي في أريجنا كلَّ صبٍّ   وانفحي من رماده الصّهباء
واجلدينا مع النّهار نهاراً   ومع اللّيلِ فجرينا ضياء
ودعينا نعكّر اللّيل يوماً   بالأماني، فقد كرهنا الصّفاء

يا نواعـيـر مـا أعـرتكِ وجـهـاً غـيـر وجهي، ومـا جـحـدتُ الوفـاء
إن تلومي وفـاءَ قـومي فـدمـعي نُصـبتَ عـيني يُعـاقبُ الأوفـيـاء
لـيس مـــــاءَ هـذا الرذاذ، ولـكـنْ هو غـيـضٌ من فـيضِ دمعٍ تراءى

يا نواعـيـــرُ كلُّنا فـيكِ جـزءٌ صـار كـلا حين اسـتـوى أجـزاء
يتـنـاهـى الزّمــــانُ حين نـغـنّيكِ .. فنصـبـو الى الزمـان ابتـداء
ويضـيـعُ المكانُ حين نناغـيـكِ فنحـبـو فـوق المكان احـتـواء
فلتـدوري مـا شـئتِ فـينا يميناً او شـمـالاً أو بينَ بينَ اسـتـواء
فـكـلانـا يدورُ حـــول كـلينـا وكـــلانـا طوى الأمـــام وراء
يا نـواعـــيـــرُ لستُ ممّن يُغنّي للأمــاني، ويسـتـذلُّ الرجـاءَ
أنا ذاك الرجـاءُ، فلتـسـمعِ الدنيـا نـذيري، ولتُـبلغِ الجـوزاء
أنا فـيض السّناء، أنسج أحـلامي .. وشـاحـاً منمنمـاً وضّـاءَ
لا تضـيـقُ الدُّنا بفـيض أمـانيّ .. وغـيـري ضـاقت به أنحـاء
ليس للدّهرِ أن يصـوغَ أمـانيَّ .. فـشـأني مـا شـئت لا أن يشـاء
أنا فـحـوى السّنا أُفلسف أضـوائي ..، وغـيـري يُفلسفُ الظّلمـاء
لا يرى دون أنفـه راسـيـاتٍ ..، ولو امـتـدَّ في المدى أرجـاء
شَططٌ مـا يرى، ويأنف جـهـلاً أن يرى عـينه غـدت عـمـيـاء
خلِّ عنكَ الرؤى، وخلّ الأمـــاني لن ترى برقـهـا ولا اللألاء
وأرحْ لُبّكَ العـصيَّ، وعـاقـرْ من طلى طيـفـهـا رؤىً سـوداءَ
أنتَ مَنْ أنتَ؟! أنتَ مـازلتَ صـوتاً من صـدىً قـد أعـرته الببـغـاء
وأنا العندليبُ مـا فُـهـمتُ إلاّ كـان صـوتي لكلّ صـوتٍ حُـداءَ

أنا لا أرتجي ثُمالة كأسٍ من نديمي، وقد ملكتَ الدّلاءَ
كيف أصبو لنُغْبةٍ من غديرٍ وأنا البحرُ قد طمى وتناءى؟؟!
لا أرى في الدّجى مضيئاً سوى النجمِ ..، وغيري يعمى به وضّاء

يا نواعيرُ أيَّ فلسفةٍ مُثلى .. نصرنا لننقذ التُّعساء؟!
ليس كلُّ الذي نراهُ سراباً أو سحاباً يصيرُ - يوماً - ماء
أيّها البؤسُ كم تهافتَ قومٌ بالأماني، وناصروا الفقراء
وغدَوْا بعدها أساطينَ تِبْرٍ ولُجينٍ، ونافسوا الأثرياء
ربح الأدعياء ما قد خسرتم فغدا الربحُ والشّعارُ سواء
قدَّس اللّه سرَّنا كم عرفنا حين ذُقنا الدّواءَ والأدواء
غير أنّا لم نغترف من زلالٍ بل غرفنا الجُفاء والأوباء
لا تقل إنني غرورٌ، ولبّي نرجسيٌّ يُعاندُ الكبرياء
أنا إنْ شئتَ قد بدأتُ غروري ولتكن أنت للغرورِ انتهاء
وعرفتُ الأضدادَ: ها أنتَ داءٌ وأنا قد خُلِقْتُ للدّاءِ داء
وعرفتُ الحروف أفقهُ معناها ..، وأُزري بفقهها الفقهاء
إن تفِئ يا أخي إلى كُنْهِ أفكاري ..، تعانق أسرارها الغرّاء
أنا إن شئتَ «همزةٌ» قد تلتها «خاءُ» خِدْنٍ وشيجةً وإخاء
هي ذي نسبتي، وهذي حروفي إن أكن «همزةَ» فكن أنت «خاء»
يا أخي إنْ فقهت - يوماً - حروفي فأعرني الأفعال والأسماء
وأعرني معناك في الأرضِ، لكنْ لا تُنافس - فيما فقهتَ السّماء

لشاعر الهند الأكبر: طاغور

ترجمة: نويل عبد الأحد

هدية

ماذا عساي أن أقدمه لكِ؟
أية هدية من هداياي أقدمها لكِ في هذا الفجر؟!
أأغنية الصباح؟
لكن الصباح لا تطول إقامته
فحرارة الشمس تذويها كما الورود
والاغاني.. يبلوها الضنى.. فتتلاشى

حبيبتي!!
ما الذي تطلبينه مني؟
حين توافين الى منزلي عند الغسق..
وماذا عساي أن أقدمه لكِ؟
أضوءاً!!
أم مصباحاً انتزعه من زاوية مهملة في منزلي
المسكون بالسكينة!!
تأخذينه معك وتسيرين به على مرأى من الجموع المحتشدة
على قارعة الطريق..
لكن الهواء، واأسفاه سيعبث بنور المصباح..
ويطيح به..

أية هدية إذن استطيع ان أقدمها لكِ؟!!
أوروداً.. أم جواهر؟!!
وهل تبعث في قلبك فرحاً؟!!
مادام إنها، ستذوي هي الاخرى..
وتفقد بريقها..
وتغنى!!
كل ما استطيع ان اقدمه لك
ينساب عبر أناملك، ثم يهوي الى التراب
ليتحول بدوره الى تراب.. ويُنسى!!

لكن..
إن كان لديك متسع من وقت..
فوافي الى بستاني، في الربيع
وتسكعي بين وروده ورياحينه،
وما ان يباغتك عبير وردة
- من المجهول -
محولاً هنيهتك تلك الى دهشة
- غير متوقعة -

فلتكن هذه الدهشة.. لتلك الهنيهة
هديتي اليكِ..

وحين تتجولين..
تحت ظلال اشجار البستان المتعانقة..
ثم يفجأك خيط ضوء - وحيد ومرتعش -
من خيوط شمس غاربة..
تسلل عبر تلال عتمة المساء الكثيف
مترجماً احلامك اليومية الى مروج ذهبية
فليكن ذلك الخيط،
من الضوء الخافت..
هديتي الخالصة اليك..

شـعـر: فـيـكـتـور هـوجـو

ترجمة: فاطمة عابدين

الإنسان والطبيعة

يعتبر فيكتور هوجو واحداً من أكبر شعراء العالم. وذلك بسبب خياله المتدفق وسمو خلقه والخصوصية المطلقة في كلمته ودقة الصور وجرأتها وحداثة تعبيره ورشاقة النغم في ابياته مما يعطي لك الاحساس بالكمال.

كان شاعراً كبيراً بطبيعته تلك الطبيعة التي كانت تشف له عن الاشخاص والارواح والنفوس، فكانت لأعماله قيمة كبرى ملونه لا تقدر بثمن وكانت الطبيعة تنعكس فيها.

ويقدم لنا «هوجو» في هذه الأبيات الرائعة احساساً بالكآبة. ففي مواجهة مع الشمس الرائعة التي تتهادى للمغيب نراه يتأمل خلود الطبيعة وازليتها فيعتصر الألم قلبه وهو يفكر بضعف حياته الانسانية وأمدها القصير جداً.

وتعبر هذه الكلمات القصيرة التي قالها عن شفافية نفسه ورقتها الانسانية

«ما هو هذا القانون الرهيب!
الذي يسلم الانسان للانسان؟!
والحيوان الفزع للرج السكران؟!..»

*

غابت الشمس هذا المساء
وسط السحب.
وغداً ستأتي العاصفة..
ثم يأتي المساء ويتبعه الليل.
ويعود الصبح من جديد
من خلف الضباب
وتكر الليالي والأيام
خطى هذا الزمن الهارب.

أيام تسير بالجملة.. تسير جماعات
فوق سطوح البحر
وعلى قمم الجبال
فوق مياه الانهار الفضية
وسط غابات توشوش فيها تسابيح غامضة
لأموات طالما أحببناهم.
سطح الماء هذا.. وجبهة الجبال الشماء تلك
قد تتجمد ولا تشيخ
غابات دائمة الاخضرار.. متجددة على الدوام
انهار كبيرة تستمد مياهها من الجبال..
وتلقيها في المحيط..
أما أنا.. فرأسي ينحني باستمرار..
لدى كل يوم يمر..
أمضي.. وأنا أشعر ببرودة جسمي
تحت هذه الشمس المرحة.
أمضي الى نهايتي..
وسط كل هذا المهرجان..
فلا يتغير شيء..
في هذا العالم الفسيح الساطع..

فكتور هوجو
من «أوراق الخريف»



بقلم:
عبد الله أحمد باقازي

.. طفحت عيناه ببريق غريب وهي تناوله فنجان الشاي.. كان وجهه المجدر المطفأ العينين نقطة تصلبت عليها عيناها الذابلتان.. عصرها اليأس.. كادت تصرخ: لأول مرة ترى وجهه بشعاً إلى درجة التقزز.. يده التي لا تكف عن الارتعاش تحس بأن حركتها تهتز داخلها.. الويل لها.. انه سيموت في أية لحظة.. لو سقط الفنجان من يده الآن.. لومسته لترنح على كفاه ومات.. إنه يكذب عليها.. إنه ليس في الثمانين.. ربما كان في التسعين.. في المائة.. في الالف.. المهم انه غير قادر على الاحتفاظ باتزان يده.. لولا انها «صماء» ما قبلت به لكنهم جميعاً قالوا لها: انه فرصتك الوحيدة.. لن يقبل بك غيره.. الرجال يشترطون ـ اليوم ـ نساء بأربعة آذان.. وأنت بلا اذن واحدة.. بلا سمع.. جهاز هلامي من لحم ودم يتحرك على ضوء «الاشارة» فقط.. لكن يجب ان تجعليه زوجاً محبوباً.. بهذه الطريقة فقط تتحملين انسكاب منظره في داخلك»!

.. كان الصمت راكداً كظلال «العصر» التي تشكلت تحت جدران المنزل.. وشجرة السدر المقابلة تتراقص اغصانها المثقلة بحبات «النبق» في موجة ريح عنيفة.. «براد» الشاي تكثف الذباب حوله.. والهدوء ينسج نفسه حول المكان.. سكب هو الفنجان للمرة الرابعة دفعة واحدة في جوفه.. «إذا صببيت الشاي مرة ثانية نبهيني.. دائماً اشربه «بارد».. الله يكافيك» من الصعب ان ينقله اليها..

الاشــارة لن تؤدي دورها في مــثل هذا الكلام.. الأفـضل ان يكتـفي من الشـاي ويصمت.. الصمت.. أفضل موقف!

غطى الفنجان بكفه مشعراً اياها باكتفائه.. «هذه الاشارة تفهمها..» .. تراجع زاحـفـاً الى الوراء يريد الاسـتـناد الى الجدار.. دفع نفـسـه بعنف الى الخلف.. وأحس بوخزة مؤلمة في ظهره.. صرخ.. لم تسمعه لكن تجاعيد وجهه تجمعت على «الالم» في وجهه، فتنبهت هي والتفتت الى حيث يسند ظهره.. فوجدت «مسماراً مغروساً في الجدار.. عض هو على شفته السفلى متألماً.. وأدركت هي انه يقصدها بهذه «الحركة».. «لقد نبهها ان تنزع هذا المسمار اكثر من مرة.. وتنسى هي دائماً!..

.. امتدت يده تتحسس الجدار حتى قبض على المسمار.. نزعة بشدة.. فكر بغرابة في محاولة جنونية.. «ماذا لو وخز عينيها بهذا المسمار.. حتى تصبح «عمياء».. أليس من الواجب ان تشاركه عالم الظلام؟..

.. كان الالم ما يزال مشتعلاً في ظهره كسهم مزروع تحت جلده.. بصق عليها وسط معاناته:

ـ الله يسامحك يا شيخة..

.. تأكد انها لن تسمعه.. احس «بقرقرة» في بطنه.. انه الجوع.. لقد احضرت له الغداء قبل اذان الظهر.. تصنع الطعام متى يحلو لها.. وتقدمه متى يحلو لها.. ورغم اشاراته الكثيرة الى بطنه كل ما أحس بالجوع تأتيه بالفلفل والجنزبيل والنانخة.. تعتقد ان معه أسهالا مزمناً.. ويشير الى فمه لعلها تفهم.. فتحضر له الماء... جنون.. سيجن قريباً.. او سيموت.. ليته يموت.. أو ليتها هي تموت.. ليتوقف سيل العذاب المنصب على رأسه من ناحيتها..

اقتربت منه «وقبلت» رأسه وسمعها تعتذر اليه عما سببه له المسمار من ألم.. وتؤكد له انها «عشيرته» التي لا ترتضي له الا كل خير.. أراد ان يجاملها، وأن يجهز لها شعوراً مصطنعاً.. فأشار الى صدره بمعنى: «انك دائماً في قلبي».. فاستقبلت اذنه صرختها الحادة التي لم يكن يتوقعها داخل «لحظة» تجهيز الاحساس المتبادل:

ـ صدرك أيضاً يوجعك؟!

.. هز رأسه ويديه بعنف: لا..

.. لا حول ولا قوة الا بالله.. الافضل ان يصمت. الاشارة ايضاً اصبحت متعبة اكثر من السباق.. منذ سنوات وهو يشير ويشير.. تعبت يداه ورأسه .. وحتى الآن لا تستطيع ان تفهم ما يريد.. ليتها تفهم انها «عذابه» في هذه الدنيا.. مستحيل ان تصبح لحظة سعادة في حياته.. «صممها» هو كل المصيبة.. ليتهم يأخذون احدى اذنيه ويضعونها لها.. انه يقبل ان تكون له اذن واحدة و«نصف زوجة».

.. تطلعت اليه وفي ساحة ذهنها ينمو سؤال ازعجه انزلاقه على شفتها:

ـ حامد.. لماذا لا تقول لي على كلام

الراديو؟..

.. يا خالق السموات والأرض!.. انها تريده ان يقول لها ما يسمعه من «الراديو». رفع رأسه وهزه وهز يديه: لا.

ـ الله يعافيك

ولن يقضي على الحاحها هذا إلا بصفعة.. لكنها تستحق الشفقة.. ليكن معها أرحم والطف.. لكن كيف سيقنعها ان ذلك أصعب من اعادة السمع الى اذنيها.. فكر ان يقترب من اذنها ويصرخ بأعلى صوت له أو يهمس فيها بأي كلام يقنعها فيه بصعوبة ما تريده.. لكنه ادرك ان كل ذلك لا جدوى منه!..

.. أشار لها أن احضري الراديو.. وفتحه على أعلى صوت ثم قربه من اذنها. ومزق الصوت العالي هدوءه.. لكنها ظلت صامتة، يدها تضغط الراديو على أذنها.. وعيناها حملت في بريقها كل الترقب الذي تشعر به.. جذب الراديو من يدها وقذف به:

ـ الله يسامحك يا شيخة..

.. قالها بصوت أعلى من المرة السابقة.. وهو متأكد من أنها لن تسمعه.. لو سمعه سكان القطبين ما سمعته هي .. مصيبة هذه المرأة ما بعدها مصيبة.. بدأ له الظلام الذي يعيشه أكثر سواداً مما مضى.. ليس «كالأعمى» شخص يعاني الظلام.. الأخرون يبددون ظلامهم بالشمس والكهرباء.. الا هو .. فالدنيا في عينيه ليل فقط!..

.. وجد نفسه يتخيل شجرة «السدر» التي تكلمه هي عنها كثيراً لحظتها كان حفيفها نغماً خشناً يذوب في أذنيه.. لا يكاد يتصور الآن الشجرة.. كيف حجم ورقها وجذعها وأغصانها.. خضراء.. حتى اللون الأخضر لا يدري كيف يكون .. هل هو اسود؟..

.. تساقطت في ذهنه اسئلة عديدة عن لون: الطير.. والسماء.. والبحر.. والسيارة.. وغابت في رؤيته بسرعة وعاد يمتص المه القديم! بكل حرارة العتاب راحت عيناها تحرق جسده بنظرات ملتهبة حادة.. لماذا قذف بالراديو بعيداً عن اذنيها؟. وجدت نفسها تبصق معالمه من داخلها في لحظة انتقام... ضعيف ويستحق الشفقة.. لكنه «جلف» وقاس.. نسى انه طفل كبير هي الانسانة الوحيدة التي ترعاه.. هي التي تحدثه.. وتؤنس وحشته.. وتصنع له طعامه.. وتقوده الى الحمام.. وتخلع عنه ملابسه وتلبسه غيرها.. وتحكم له وضع الطاقية والغترة بطريقة معقولة!.. زمت شفتيها وأحست بشهوة الانتقام منه تتلاشى في داخلها.. مسكين لقد آلمه المسمار.. هذا يكفي!.. بدأ وجهها يستعيد قسماته الطبيعية.. فكرت ان تجعل «الصفا» احساساً مشتركاً بينهما.. لحظتها كان الاصيل يتدفق من كل الانحاء «بصفرة» توقظ الذكريات.. والوحدة.. والشجون.. شجرة «السدر» المقابلة تشهد تجمعات العصافير.. وتعلقت نظراتها هناك.. لا شك ان هناك اصواتاً لهذه الحركة.. هو يسمعها وهي تراها.. ليته

يقول لها عن هذه الأصوات!.. اندفع صوتها يشق جو الجمود المتراكم:

ـ حامد.. ليتك ترى العصافير على شجرة «السدر» المقابلة؟!

تشرب سمعه الجملة ببطء.. أحسن بالكلمات تهبط في أعماقه فتشعل فيها فكرة خبيثة.. لماذا تقول له مثل هذا الكلام؟.. هل تريد ان تنتقم منه؟.. أن تعيره بالعمى؟.. كاد يترجم الفكرة الى كلمات ملتهبة يسكبها على وجهها.. أو يبصق ناحتيها على وجهها.. أو يبصق ناحيتها كلما أغضبته.. لكنه بقى صامتاً.. أحس انها لا تستحق مثل هذه الأشياء.. انها طيبة رغم أنها تتعبه دائماً.. ملأت ذهنه حادثة قديمة.. (التراكتور كان يزمجر بصوت هادر.. الصوت ازعجه يومها.. ظنها سيارة شحن ستقتحم منزله.. او طيارة ستسقط عليهما.. أو شيئاً يتدحرج من أعلى ويتحطم.. وأطلت هي من الباب: «هذا التركتور يوسع الشارع يا حامد».. لا زال يعيش الحادثة القديمة.. لا زال يحس انها طيبة.. وانها «عينة الوحيدة» خارج جسده..

.. تضاعف البريق في عينيها.. وهجمت على الصمت بينهما تفتك به:

ـ حامد .. الصمم ماله دواء؟

ـ هز رأسه ـ كالعادة ـ أن : «لا».. اقصر واسرع جواب يمكنها تفهمه وتسكت.. بدت منه حركة التقطتها عيناها.. تنحنح ونهض:

ـ ياالله سترك..

أدركت انه يريد الوضوء.. جهزت له الابريق.. وأخذت تراقبه بجنان صادق وهو يتوضأ.. الليل ملأ المكان.. وموعد «توليع الاتريك» اقترب انتهى من وضوئه.. أحسن ببرودة تسرى في أوصاله.. انتشرت فيه قشعريرة برد.. أخذ يهتز.. ارتعشت يداه بصورة سريعة لاحظت هي الحركة.. اسرعت تحضر البطانية» وهي تحس بأنه يشعر ببرد وسقط هو جاثياً على الأرض.. أحسست بأنه لا زال يرتعش تحت البطانية.. «البطانية لا تكفي.. لا شك انه يحتاج الى تدفئة كبيرة.. ماذا لو وضعت «الطراريح» عليه.. سيدفأ بسرعة».

.. راقت لها الفكرة..

.. لحظات فقط .. كان هو مدفوناً خلالها تحت كوم «الطراريح».. وصرخ هو بأعلى ما يملك من قدرة على الصراخ «لا.. لا.. أرفعي اللحف».

.. لكنها لم تسمعه.. ظلت واقفة .. وعيناها منصبتان على كوم الطراريح.. كان صراخه لا يزال ممتداً هناك .. «لا.. لا.. أرفعي اللحف.. نفسي ينقطع» خفت صوته وغاب.. ومال جسده وجثى خامداً تحت كوم الطراريح.. سجلت عيناها «الهزة»: «أنه يريد أن ينام بعد أن تدفأ.. مسكين «سأولع الأتريك» ثم أرفع عنه الطراريح عندها يكون قد تدفأ.. كاد يموت من البرد لو لم اكن بجواره.. كنت متأكدة ان البطانية وحدها لا تكفي.. ليته، ولو لهذه المرة يقدر «التضحية».. هذه التضحية فقط!!

عاشق الوتر

بقلم:

محمد نوفل

رفرف الحزن بجناحيه الأسودين فوق رأس سعيد، وهو يدور حول السرير الذي يتمدد عليه جسد والده المريض، في إحدى غرف المشفى، تتنازعه مشاعر مضطربة، متناقضة تتوارد الى ذهنه خواطر مخيفة فتهزه الرعشة، وتنساب بداخله العواطف، تسكن غصة في حنجرته، تتلألأ الدموع في عينيه يتعشق بصره ذلك الوجه الذي تحول الى رقعة صفراء شاحبة فارقته تلك البسمة التي كانت تزين ثغره دائماً.

أبو سعيد يصارع الألم بصمت، تدور عيناه في فراغ الغرفة ببطء، ثم يستقر بصرهما على وجه سعيد، فتضعف عاطفته، حين يجمع خياله نحو الوداع الأسود، فينتحب بصمت، تنسحق عواطف سعيد تحت رحى الخوف، يقول:

ـ هل تريد شيئاً يا أبي؟ يجيبه بصوت واهن حزين:

ـ أريد أن تبقى صورتك محفورة في ذاكرتي. وصوتك يملأ سمعي.

ينتحب قلب سعيد، تضيق مساحة الكون حوله، يغالبه شعور اليأس، وتظل كلمات الطبيب المواسية، خارج قناعته، ولم تحرك نبض الأمل في قلبه.

قبل أن ينام أبو سعيد بتأثير حقنة الدواء المخدرة، يقول بلهجة مشفوعة بالرجاء والحكمة:

ـ اذهب الى عملك يا ولدي، فالحياة لا تقف حركتها لموت أحد..

يملأ الصمت فراغ الغرفة يعشعش الخوف داخل سعيد، يطارده شبح الموت، ينظر الى وجه والده، فيثير الحزن زوبعة الذكريات، وتنسكب الدموع.

يغادر سعيد المشفى تتقاذفه أمواج الحزن، يعزف بداخله لحن جنائزي.. يغرق في تيار ضبابي ساخن، شاحب، ترن في أذنيه أصوات الآلات الموسيقية، تستحضر ذاكرته أعضاء فرقته الذين ينتظرون

قدوم الليل لاحياء الحفل الفني بقيادته.

يترنح على رصيف الشارع، يخيم فوقه كابوس من الحيرة، فلا يدري ماذا يفعل، ولا أين يتجه؟!. ولم تعد لديه قدرة على الاختيار.

تزحف أسراب القلق في دمه المضطرب، يتصور الموت طائراً أسود يحوم فوق سرير والده، يهاجمه شعور الخوف، يحاول طرد ذلك التصور من ساحة شعوره، يفكر بالموسيقى فيعزف داخله لحناً كئيباً، تتماوج نغماته، موجعة في ثنايا نفسه المأسورة للحزن، وكي يبعد ذلك الكابوس الدبق عنه ، يفكر في الغناء، يدندن بأغنية يحبها، فترتد الأغنية صدى حزيناً يتماوج مضطرباً، فتعود به الذاكرة الى استحضار صورة الجسد المريض المستلقي على السرير في المشفى يصارع الألم والحمى.

الوقت يزحف نحو ساعة بدء الاحتفال، والحزن، يزحف ويلف سعيداً بوشاح أسود، وهو كالمعلق على حافة الهاوية، وفرقته بانتظاره، تتنازعه مشاعر الخوف، والحزن، والألم..

في صالة المسرح، ينتظر الحضور ارتفاع الستارة ايذاناً ببدء الحفل، الأنوار ذات الألوان المختلفة، تضيء، فينعكس ضوءها على المكان، وتبدو صالة المسرح، زرقاء، خضراء، حمراء، ثم صفراء، ومشاعر سعيد خلف الستارة تتقلب فوق مساحة من السراب الأسود..

تغيب الألوان مرة واحدة.. ثم يَسطعُ اللون الأبيض. تنشطر الستارة الحريرية ذات اللون الأخضر الى شطرين بحركة راقصة، ومعها ينشطر قلب سعيد نصفين، نصفه الأول مع والده في المشفى يدرِّج حاله الصعبة، ونصفه الثاني مع فرقته الموسيقية والاتها.

فتحت الستارة بالكامل، شخصت عيون النظارة ، باتجاه اعضاء الفرقة، وكل منهم يجلس على كرسيه يضم آلته كما العاشق يضم عشيقته بعد فراق.

يقف سعيد امام الفرقة وعيناه ترقبان حركات العازفين، يتناسى نصفه الأول الذي تركه في المشفى، يجمع شجاعته، يطرد خوفه، يمزق الوشاح الأسود الذي لف نفسه، يقتل طائر الحزن، ويعيش بنصفه الثاني مع فرقته.

تبدأ الفرقة العزف باشارة من سعيد، والذي ينظر اليه وقتئذٍ، يحس أن أنغام الطرب تنساب مع حركاته المنسجمة مع أنغام الآلات، تستنطقها الأنامل، فتثير المشاعر والعواطف، وتتمايل الرؤوس طرباً وإعجاباً.

يشير سعيد بحركات رشيقة من يديه، مرتفعة تارة، هابطة تارة.. فينساب اللحن، متناغماً يملأ الرؤوس نشوة، وباشارة خاطفة الى أعلى، ثم الى أسفل يرتفع الايقاع صاخباً ثم ينقطع اللحن، ويبقى صداه يئن، ممزوجاً بتصفيق حاد.

يلوِّح سعيد، بيديه.. يطيل التلويح بحركات آلية، وقد ذهب خياله الى المشفى، تطير به الهواجس الى عالم آخر، تنسدل الستارة، بحركة خاطفة، ثم تنحسر، يعود سعيد الى حاضره ويبدأ العزف من جديد..

يقف المطرب، أنيقاً، رشيقاً، دمثاً يلوِّح بيديه مبتسماً، يبدي سروراً ظاهراً، يطفح وجهه بحمرة الفرح.. تلتهب الأوتار نغماً يدغدغ المشاعر والعواطف، تصدح بالكلمات الرقيقة في المغنى، العميقة في المعنى.. يصل اللحن ذروته، يعلو الغناء مالئاً الأسماع.. يطفوالفرح فوق مساحة المشاعر ينتشي سعيد حين يلحظ انفعال الجمهور مع الألحان، وفيما هو غارق بنشوته، يقترب منه مدير المسرح، مضطرب الحال، مرتبك، ومسحة من الحزن تعكر نظراته، بتردد يهمس في أذن سعيد:

ـ مطلوب على الهاتف يا أستاذ

سعيد.

يدق قلب سعيد، يهز رأسه، ينصرف مدير المسرح وهو في حيرة من أمره.

تلك اللحظة راود سعيد إحساس قلق، وانساب لحن جنائزي عميق بعمق الشوق لروية والده.

يرتبك اللحن لارتباك أحاسيسه واضطرابها، وكذلك تضطرب إشاراته الموجهة للعازفين.. وكاد الخلل يعيب على اللحن انسجامه، وتناغمه لولا أن ضابط الايقاع أدرك ذلك وعاد باللحن الى سويته لادراكه أن سعيداً قد اضطرب حاله.

رنين الهاتف لا ينقطع، يلح بطلب سعيد، ومدير المسرح في حيرة من أمره، يحدث نفسه قائلاً:

ـ هل أخبره الآن، أم انتظر نهاية الحفل؟! لكنه قد يلومني اذا لم أخبره الآن..!. لا.. لا بد من إخباره.. خبر مثل هذا لا يمكن السكوت عليه!. يصمت .. يتأمل.. يفكر.. ثم يضيف قائلاً:

ـ لكنه قد يترك الحفل..!. يا إلهي .. لا أدري ماذا أفعل؟!.

يتقدم نحو سعيد مستغلاً نهاية الوصلة الغنائية، وانشغال العازفون بترتيب أوتار آلاتهم، ويقف الى جانبه يهمس بأذنه:

ـ أستاذ سعيد.. يتردد.. يسكت.. ثم يقول:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. يحدق سعيد بوجهه دهشاً، ويقول:

ـ خير يا أستاذ؟! هل .. ؟! يهز مدير المسرح رأسه، وعلائم الأسى ترتسم على وجهه، يمسك بيد سعيد، ويتجه به نحو مكتبه، وهو يقول:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، تشجع يا أستاذ سعيد.

عزفت موسيقى الموت ألحانها برأس سعيد واختلطت بتصفيق الجمهور، ورنين الأوتار، المتقطع، واندس في شرايينه شعور يائس حزين.. متردد.

الصدمة كابوس ثقيل جثم فوق رأس سعيد، مادت الأرض تحت قدميه، دارت رأسه، دخل سرداباً ضبابياً، عجز عن اتخاذ أي قرار، كل الذي فعله أنه استطاع ألا يسقط، على الأرض، ثم اشار الى العازفين أن يبدأوا العزف.

رنت الأوتار.. تناغمت الألحان، وانسابت شجية تدغدغ المشاعر، لمعت صورة والده أمام عينيه، تنازعته مشاعر شتى، دارت رحى المعركة الوجدانية بداخله، بين عمق الفاجعة والحزن، ونشوة الجمهور والفرح. واختلطت عليه الأفكار يقلبها بصمت:

ـ هل أترك المسرح وأغادر؟؟ نعم.. نعم، هذا لا يحتاج للسؤال، ولا المناقشة.. عليّ أن أغادر فوراً. ولكن الفرقة من يقودها؟! فلتذهب الفرقة والآلات الى جهنم، فلا يجوز ان ابقى هنا وابي مسجى على فراش الموت.. انه الاختيار الصعب..! يا إلهي ماذا أفعل؟!

تطير به الأفكار تحمله، على جناحين أسودين يرفرفان فوق جثمان والده، ثم يعودان به، ليجد نفسه يلوّح للعازفين بخفة ورشاقة.

تلتهب الأوتار تحت الأنامل، وتنداح دوائر سوداء فوق سطح ذاكرة سعيد، ويمر شريط يحمل صوراً تتراقص أمام عينيه.. يداه تشيران بخفة ورشاقة، وابتسامة مرّة يلعقها بلسانه عن شفتين جففهما الحزن.. وبداخله يدور حديث تشابكت فيه الكلمات بالآهات، والألحان بالزوتار، والفرح بالكآبة، والحرية بالأسر، يخاطب والده بصمت:

ـ آه، يا أبا سعيد، قدرك أن تودع الحياة وولدك الوحيد بعيد عن عينيك.. بالتأكيد بحثت عيناك، ودارت في الفراغ ترغب رؤية ولدك قبل الوداع، نادته روحك وهي في صراع مع الموت، لكنه لم

يرد عليك.. عذراً أيها الوالد، إن قدر ولدك أن يكون عاشقاً للوتر كما أردت له ذلك أنت.. وهكذا قدرك أنت أن تتمزق روحك بين مخالب الموت، وأتمزق أنا مأسوراً بين رنين الأوتار.. إن روحي تسجد لروحك، وقلبي يبقى وفياً لوفائك..

تنقطع خيوط هذا الحديث، تتلاشى صوره بضربة وتر قوية تعيد سعيد الى تفاعله مع اللحن، يشير الى عازف الكمان.. تهبط يده، فينساب لحن هادىء حزين يعتصر له قلب سعيد ألماً، ويدور شريط الذكريات، ليختصر ثلاثين عاماً مضت وكأنها لحظات حلم.

تضيق حدود المكان والزمان، يتمدد الحزن شبحاً، ويغالب سعد الانهزام، يمسك عن الكلام، لئلا تسقط دموعه، فيسقط كبرياؤه يلزم نفسه، الانسجام مع الواقع، متحدياً الهزيمة.

الآلات الموسيقية تزف ألحانها، يعلو صخبها معلنة النهاية، يجره خياله، الى صخب البكاء، وأصوات النائحات تحلقن جثمان والده، تغص حنجرته.. يجف حلقه، يتمزق شوقاً للخلاص من كابوس الزمن. يقوله لنفسه:

ـ الموقف حرج والاختيار صعب.

يترنح وسط دوامة من التردد، والحيرة، تتضخم الغصة في حنجرته، فيبدو أثرها واضحاً في عينيه، تنتهي الأغنية.. تصمت الأوتار، الا بعضها يرن رنيناً متقطعاً، لاصلاح شأنها، يدخل سعيد غرفة الاستراحة، يلحق به مدير المسرح، يقف أمامه مطرقاً نظره الى الأرض ويقول له مواسياً:

ـ يا أستاذ سعيد، أنت تعلم مفاجآت الزمن، والموت واحدة منها، والمهنة سر نجاحها الصبر. يحاول سعيد الكلام، ترتجف شفتاه، يعجز عن الكلام، يعود الى صمته، تملأ الغصة حنجرته، ينظر مدير المسرح الى وجه سعيد، ويقول:

ـ اني مقدر لك صعوبة الموقف، وقساوة الظرف تجاه هذه الفاجعة، ولن مَنْ الذي ينوب عنك في..؟

يقاطعه سعيد، ويقول بأسىً:

ـ لكنه أبي يا أستاذ؟!، وأنا.. أنا ابنه الوحيد..! ألا ترى أني اذا لم أذهب الآن تناولتني الألسن بالسوء، ووصفني الناس بالعقوق؟!

يسود صمت، يبدده سعيد بزفرة عميقة، كأنه يريح صدره من بعض الحزن، يهز رأسه ويعود الى منصة المسرح، يحاول رسم ابتسامة على شفتيه الجافتين، يقف أمام العازفين مشيراً لهم: أن يبدأوا العزف...

تتناغم الألحان.. ينادي المطرب «الليل» فتتمايل الرؤوس، وتردد معه: يا ليل ـ لكن سعيد ليله أسود بالرغم من الأنوار الساطعة، وموسيقى قلبه حزينة بالرغم من العزف المفرح. تبدأ ذاكرته تنبش مقبرة الزمن، تستحضر صورة والده حين كان يجلس أمامه بكامل هيئته، وحيويته يردد: «ياليل» وهو يعزف له على الكمان ، ليل سعيد طويل، وزمن الانتظار ثقيل، والحزن والانتظار يحرقان أعصابه.. يردد المطرب أخر مقطعاً من الأغنية .. تزغرد الآلات إيذاناً بالنهاية، فيعلو الضجيج والتصفيق..

يتناول سعيد آلة الكمان، يعزف لحناً متميزاً، يخيم على المكان السكون.. يموت الضجيج، تلتزم الأنفاس الصمت، يصيخ الحضور السمع الى قوس الكمان يعانق الأوتار فيبكيها، يستمر اللحن يهصر القلوب فيعتصر الدمع من المآقي ويدخل الحضور عالماً جنائزياً. ويحترق الوتر تحت مسيس القوس حزناً، يخيل للحضور أنهم في حفل تأبيني كئيب، يصعّد سعيد اللحن تجهش الصدور بالبكاء، يلقي سعيد الكمان ويخرج تاركاً الحضور يلملمون دموعهم.

ثلاث قصص

بقلم:
شذى برغوث

الكهف

قضت أياماً وأياماً في محاولة لاكتشاف شيء ما، غير هذا العالم الأبيض الناعم المتشابه. سارت يميناً وهي تحفر نفقاً طويلاً للوصول إلى نهاية، لكن انهيار الحبيبات داخل النفق كان يصيبها بالخيبة.

جربت الأنفاق الطولية والعرضية والمتقاطعة، فكانت النتيجة واحدة /انهيارات دائمة/.

ماهذا؟ هل ستبقى حياتي هكذا؟ أهذا هو عالمي؟ أم أنني مصابة بعمى الألوان؟.

* في كل مرة كانت تصاب باليأس والخيبة، يطلع عليها نهار جديد تسمع فيه أصواتاً ولغطاً، وأحياناً كانت تشعر بحرارة آتية من أحد الجهات أو من كل الجهات.

يتجدد الأمل لديها باكتشاف شيء ما أو لون ما، وتتابع حفر أنفاقها ونشاط.

آه هذه مخلوقة مثلي. لمحتها للحظة ـ حمراء صغيرة ذات سطح أملس، ياإلهي لقد انهار النفق قبل أن أتمكن من الوصول إليها وأكملها.

/لكنها فرحت رغم ذلك فرحاً شديداً باكتشافها/.

/رقصت من الفرحة/ إنني لست وحيدة، كما أنني لست مصابة بعمى الألوان/.

شحذت تلك الحادثة من همتها فضاعفت جهدها، وكثرت مصادفاتها لمخلوقات يشبهنها، لكن ماكان يزعجها هوتلك الأنهيارات التي تفرقها عن بنات جنسها.

إنها حركة غير عادية؟ حركة تشبه سحب خيط من أعلى الكيس الذي يضم عامل الحبيبات البيضاء كما أن الهواء أصبح ساخناً أكثر من ذي قبل ما السبب ياترى!

هاهي تتطوح في الهواء تُرفع أكثر ـ تُقلَب رأساً على عقب وانهيار هائل يصيبها بالرعب.

تتشبث بأحد الخيوط الجانبية، ينزاح الثقل بانزياح الحبيبات البيضاء، تبقى متشبثة بالخيط.

يُلقى بها جانباً وتُركل هي والكيس الملتصقة في داخله بقوة.

فرِحت ببقائها على قيد الحياة.

فرِحت لخلاصها من حَفر الأنفاق.

نامت في تلك الليلة سعيدة تحلم بالراحة والحرية.

الضجيج كان شديداً في الصباح ـ الحركة سريعة وحرارة شديدة أكثر من المعتاد. ركلات ودهسات لاتعد ولاتحصى، قد أصابتها في ذلك اليوم ـ تسللت الخيبة من جديد إلى داخل نفسها، فقررت البحث عن مكان آخر.

سارت متتبعة مصدر الصوت والحرارة لتصل إلى مخرج يخلصها من هذا المأزق الجديد.

* كان بلاط الأرضية مغطى بالحبيبات البيضاء الناعمة والمخلوقات اللواتي يشبهنها.

نامت في إحدى زوايا المكان في انتظار شيء ما.

استيقظت في الصباح الباكر على أصوات هي خليط من الرق والصراخ واللغط ـ راقبت من زاويتها هذا العالم الجديد/.

لم تر سوى أقدام تمر من أمامها، أقدام كبيرة جداً.

وأن كل اثنتين من هذه الأقدام متساويتان ومتشابهتان تماماً.

كما تتقدم إحداهما الأخرى في حركة متناوبة، ولاتتحركان معاً.

زحفت ملاصقة لحرف الجدار كي لاتدهسها تلك الأقدام الكبيرة.

ـ/على الباب الحديدي المؤدي إلى الخارج تزاحمت الأقدام بكثرة عجيبة/.

تتلاصق ـ تتفرق ـ يدهس بعضها بعضاً ـ ثم.. تدافع وصراخ ـ وتستقر الأقدام أخيراً كل اثنتين إلى جانب بعضهما.

يعلو صوت الرق من جديد.

* في إحدى رحلاتها اليومية إلى الباب الخارجي رأت قدمين صغيرتين محشورتين في حذاء، بيتي كانت أطراف الأصابع قرمزية.

إنهما قدمان جميلتان إذْ أطالت النظر إليهما.

لم تلبث أن رأت قدماً كبيرة سوداء تخرج من شبشب عتيق وتتحسس القدم الصغيرة.

تحاول القدم الصغيرة الانسحاب فلا تنجح الإبصعوبة ـ تتحسس القدم الكبيرة على الأرض بحثاً عن الشبشب الذي تاه في حركة الاقدام.

يتناقص عدد الأقدام ـ تستقر كل قدمين إلى جانب بعضهما.

/قدم واحدة بقيت منفردة تجاورها عصا غليظة/.

تتحرك القدم مع العصا في تناوب.

إذاً هذه العصا تستعمل لعدة أشياء؟

/إنها تشبه العصا التي رأيتُها منذ أيام عندما أُغلق المحل ظهراً/.؟

كان صوت صاحب المكان يجيبه صوت طفل.

يعلو صوت صاحب المكان ـ يبكي الطفل.

يتعالى الصياح ـ يعلو الصراخ.

هاهما قدمان حافيتان تمران من

أمامها عدواً تتبعهما القدمان الكبيرتان بحذاء مطاطي أسود وعصا غليظة ـ تماماً كتلك العصا.

ترتفع العصا ثم تهوي.

ثم صوت أشياء ترتطم ببعضها... ثم لاشيء سوى نشيج الطفل.

لم تنم تلك الليلة.

ماهذه الحياة؟ في البداية عالم من الحبيبات البيضاء الناعمة، ثم عالم من الأقدام الكبيرة والصغيرة.

لا.لا.. أنا أحب الأشياء المتماثلة، سأحاول من جديد.

* في الصباح سلكت طريقاً عمودياً.

ارتفعت وارتفعت.. كان وهج من الحرارة يلفحها أمعنت في الارتفاع.

ياإلهي.. هناك أشياء أخرى ـ أشياء عجيبة ـ أدوات معدنية كبيرة تدور وتدور ـ لهب أحمر جميل.

تابعت النظر ـ فرحتها باكتشافها لاتوصف.

أجهدها التعب ـ بحثت عن زاويتها ـ عندما لم تجدها نامت في ثقب على الجدار.

في الصباح التالي أيقظها اللغط والرّق، قبعت تراقب بعين الدارس الآلات الكبيرة والنار المتوهجة.

في تلك الليلة لم تنم جاهدت حتى وصلت إلى الآلة الكبيرة التي تدور فيها يومياً مئات ـ المخلوقات مثلها، وملايين الحبيبات البيضاء الناعمة.

باتت تحلم بالنار المتوهجة الرائعة التي ستدخلها غداً والكهف المستدير المحمر الذي ستستقر فيه والذي تصطف آلاف الأقدام متزاحمة للفوز به.

من سيكون صاحب الحظ السعيد الذي سيفوز بي ياترى؟

سأختار صاحبة القدمين البيضاوين ذات الأطراف القرمزية؟

أو الرجل ذا القدم الواحدة والعصا؟

أجل... أجل لن أكون لصاحب قدمين عاديتين أبداً.

/في اليوم التالي/

كان جسدها في مكان مختلف تماماً...

وغابت الأقدام في كهف آخر.

البعوضة

تململت في فراشها... تأففت... ضربت يدها على زندها وهرشت بتكاسل، ثم عادت ساكنة كما كانت، يرتعش جفناها بحركة غير منتظمة، وطيف ابتسامة على شفتيها المتلئتين.

مرة أخرى ارتجف جسدها.

علامات الضيق بدت على قسمات وجهها.

ضربت يدها على ثديها الذي تركه الصغير خارج نطاق الثوب عادت إلى نومها ثانية

تقلبت مرة أخرى هرشت موقعاً ما من جسدها.

نهضت بانزعاج شديد تلملم خصلات شعرها المبعثرة التي بلون الأرض المشبعة بالمطر. دعكت عينيها اللتين تشبهان لون المروج في صباح ربيعي مشمس.

انتصبت بوقوفها آيات اللّه البينات تشهدك انه رب الجمال والكمال.

أضاءت المصباح ودارت على جدران الغرفة بعينيها الناعستين.

أدارتهما على الفراش باحثة عن شيء ما.

كزّت على أسنانها بعصبية بالغة.

ـ سأقتلك لا محالة.

بضحكة ساخرة وصوت يشبه الطنين جاءتها الإجابة.

ـ لاتثوري ولا تتوعدي فلن تستطيعي قتلي.

ثارت ثائرة المرأة وفر النعاس من

عينيها.
- لا تستفزيني أيتها الحقيرة.
بوقاحة رد الصوت،
- هه، ليكن لكني أزعجت منامك وها أنت لا تستطيعين شيئاً.
- بل أستطيع، وهزت يديها متوعدة... وسترين.
ببرودة شديدة وصوت يبعث على الاشمئزاز أجابها الصوت:
- لن تجديني فأنا في كل مكان.
- وأي مكان يا ربيبة المستنقعات، ولكن، فعلاً فالمستنقعات في كل مكان.
قهقهت البعوضة وبرنة خبيثة قالت:
- مستنقعات؟
لكني غلبتك يا ابنة الأرض الطيبة.
- من قال انك تغلبيني؟ ألأنك وخزت مساحة إبرة من جسدي؟سأسحقك سحقاً،وأجعلك أثراً بعد عين.
- لن تجديني فأنا خلف خزانتك أو ستائرك، في فراشك، أو في طيات ثيابك أو .. أو.. هل صدّقت؟ إنه من الصعب الإمساك بي.
- إنك جبانة تتسترين خلف الأشياء.
- ها ها ها ... هي السياسة ياعزيزتي ... والتكنيك.
- صححي اللفظة انها الخساسة بالتحديد.
ببرودة ماكرة ردت البعوضة.
- لا تعكري صفوك من أجل قطرات من الدم، إنك تسيئين لجمالك.
ثم ما هذا البخل؟ لقد عرفت عنك غير ذلك.
كادت أن تطفر دمعة المغلوب على أمره من عينيها، جالت بعينيها على الفراش النظيف والوسادة الطرية بحسرة، قطع شرودها /الصوت الطنين/.
- اسمعي: ما رأيك بهدنة نعلنها حتى يوم غد لتنامي انت وأنام أنا.

رمت بجسدها على الفراش وأغمضت عينيها وتراخى جسدها المكتنز في سعادة ويدها تحسس على موضع وخزة في زندها، /وفي الصباح كانت قد نسيت الأمر كله/.
في الليلة التالية:
راحت تعد فراشها وفراش الطفل، تبتسم للأحلام المطرزة داخل وسادتها.
مازالت تلملم خصلات شعرها، ترجعها للخلف حتى لا تشوش أحلامها.
عبست فجأة، وخيبة قد تلبست ملامح وجهها الملائكي.
لقد تذكرت الليلة الفائتة.
همست لها الوسادة، تعالي ولا تبالي فقد تكون نامت أو ماتت. أو هاجرت إلى جسد أخر.
فارتمت على فراشها الناعم تستعجل الأحلام المطرزة.
هاهي وسط أرض خضراء تمتد امتداد البصر، تأخذها البهجة وجمال الأرض. تنقّل بصرها هنا، هنا، وهنا. تتفجر أزهاراً ملونة في مواقع نظراتها.
يقهقة طفلها بصوت عذب منتصباً وسط الخضرة حاملاً مجرفة صغيرة.
يرقص قلبها. يكبر الطفل. تكبر المجرفة. يكبر. يكبر: لقد صار عملاقاً.
بضربة واحدة من مجرفته الصغيرة، تدفقت المياه نهراً من الماس.
يصيبها رذاذه. تسبح روحها في السعادة.
تضرب بيدها على عنقها، تستدير لتكمت الحلم.
تهرش موقعاً أخر من جسدها.
تنهض بانزعاج، /لا فائدة/.
غابت يدها خلف الخزانة لتخرج بشيء أحمر مشبّك لوحت به وهي تتفحص حوائط الغرفة..
- الليلة نهايتك لامحالة.
ها، ها، بسلاحك القديم هذا؟ أم غرك

كبر جسدك؟

صارت تقاوم إغراء الأحلام المختبئة بين طيات فراشها.

ليالي طويلة، ونوم متقطع، صراخ طفلها الذي بدأت تظهر على جسده نتوءات حمراء، البقع اللعينة تشوه جسدها وجسد صغيرها.

يبدو أنها ليست بعوضة واحدة؟

بالتأكيد ليست بعوضة واحدة انه جيش من البعوض، ما العمل؟وأسقط في يدها.

ـ ناداها الصوت الذي يشبه الطنين.

ـ اسمعي أيتها المرأة ما رأيك أن نتفق؟

(يبدو أنها تراقب تفكيري أيضاً ما هذا؟!).

وردت المرأة مغتاظة.

ـ نتفق، على ماذا؟! وهل يعقل بعد كل ما حصل؟!

أجل... أجل... ممكن.

ـ كيف؟ وإن كنت أرفض سلفاً.

ـ/رد الصوت الطنين/:

أن نحدد المساحة التي نجتاحها من جسدك وجسد الصغير، كذلك عدد الوخزات، وقطرات من الدم لا أظنها تضرك في شيء في حين تفيدنا. جن جنون المرأة، مستحيل، مستحيل. ولاتسوّل لك أفكارك القذرة بأني أقبل المساومة.

ـ انها بقعة محددة.

ـ ولا مساحة وخزة واحدة.

ـ إذن انت حرة، فلا نوم بعد اليوم.

ـ لانوم لانوم ليكن. وليذهب النوم إلى الجحيم.

ورفست وسادتها بعيداً.

تعلق الصغير الذي يكبر كالحلم بذراع أمه، يجرها إليه، يريد أن يسر شيئاً في أذنها.

أحنت الأم رأسها للصغير، ماذا هناك ياحبيبي؟

ابتسمت، اتسعت ابتسامتها التمعت عيناها أشرق وجهها بفرح غامر، وضمت الصغير إلى صدرها بقوة.

دارت به عدة دورات.

وارتميا على الوسادة المطرزة يتضاحكان.

مرايا

* مرّت من أمامه بثوبها القصير ذي الكرانيش المتعددة.

خلّفت وراءها عطرها اللذيذ.

دار رأسه خلف جسدها وقد حلّقت روحه في فضائها الرحيب تراءت له زجاجة عطر كبيرة برأسها الصغير المقصوص الشعر وقامتها القصيرة ذات الأرداف الممتلئة.

ابتسم سعيداً وناداها بحنان لتشاركه جلسته المفضلة بين إبريق الشاي ومنفضة السكائر وأطباق الطعام.

* عندما استعدت للخروج، الذي كثيراً ما تشاجر وإياها بسببه، تراءت له بثوبها ذي الأشكال البيضوية الداكنة وشعرها الأشقر القصير وأظافرها الحمراء (مرطباناً) من المكدوس تترجرج في مشيتها وكأنها تسبح في الزيت.

* عندما حاول أن يعتذر عن طلبات المدرسة لأطفالهما انفلت الكلام من فمها دون رابط أو ضابط فتراءت له بثوبها الأزرق اللماع اسطوانة غاز انفلتت صمامها، فسارع إلى مناولتها النقود في محاولة لإغلاقها وتفادي الخطر.

حين عاد مساء من مقهاه كان أطفالها يتحلقون حولها، تداعبهم بحب ويتضاحكون بسعادة عاد ثلاثين عاماً للوراء فصار طفلاً واقترب مقبلاً جبين أمه ممسكاً بيديها محتضناً قامتها القصيرة بعينيه.

* * *